زکریا تامر



زكريا تامر

الرعد

توفيق

قصص

منشورات مكتبة النوري
دمشق

الطبعة الاولى : ١٩٧٠

الطبعة الثانية : ١٩٧٨

صمم الغلاف : نذير نبعه

قصص الكتاب

السجن

كان مصطفى الشامي يحب المواويل والنجوم والعشب الاخضر غير أنــه تعب من بناء البيوت ، وستغمض عيناه بعد قليل ، فالموت وردة من ثلــج ، مختبئة في شرايينه ، وها قد جاء صباحها .

وابتسم بغبطة اذ خطر له أن البيوت التي شيدها لابد ستمسي أنقاضا في اثر غيابه ، واندفع يركض متوغلا في شوارع صفراء ، مناديــا الهــواء بصوت مفعــم بالغضب والدهشة والأسى . وهكذا نأى عن البيوت

والمواويل والعشب الاخضر ، وتمّ دفنه بعد ساعات في مقبرة محاطة بالمنازل . ولقد ولولت زوجه ليا وانتحبت طويلا غير أنها كفت عن البكاء لما سادت ظلمة الليل ، واضطجعت وحيدة على سرير عريض، وتخيلت رجالا ثيابهم بيضاء ، يقودون زوجها الى أرض فسيحة خضراء . وكان الحزن آنذاك حمامة ترتدي ثياب الحداد وتطير هلعة تحت أمطار غزيرة. وأقبل الكرى طفلا كئيب العينين ، تحمل يده زهرة سوداء وأغنية من مخمل دافيء ، لكن جرس الباب رنّ رنينا حاداً متواصلا ، فاستفاقت ليا من نومها ، ورفعت رأسها عن الوسادة ، وأرهفت السمع وهي تفرك عينيها بأصابعها ، وكان جرس الباب ما زال مستمراً في الرنين ، فصاحت بصوت ممطوط يسيطر عليه التثاؤب : « من ؟ » .

وبلغها حالا صوت خشن آمر مألوف : « افتحي » . فوثبت تاركة السرير ، وهرولت حافية القدمين مجتازة باحة البيت المغمورة بضياء القمر، وسارعت نحو الباب ، وفتحته بحركة سريعة مفعمة بالتوجس واللهفة ، فألفت زوجها واقفاً كشجرة بلا أغصان ، متلفعاً بكفنه الابيض .

ودلف مصطفى الشامي في الحال الى الداخل متجهم الوجه ، وقال مخاطباً لميا : « اقفلي الباب جيداً فاللصوص كثيرون في هذه الايام » .

فأطاعت لميا ، وأغلقت الباب باحكام ثم تبعت مصطفى الى مخدع النوم .

يتمدد مصطفى على السرير . يقول مصطفى للميا بصوت مجهد : « لا تضيئي النور » . يصمت مصطفى لحظة ثم يسأل لميا : « هل كنت نائمة ؟ » .

لا تتفوه لميا بكلمة . تستلقي لميا بجوار مصطفى لاهثة الانفاس . مصطفى يلتصق بها ويقول بلهجة مداعبة : « دفئيني » .

صوت مصطفى يتبدل ، يفقد مرحه ويتحول الى صوت أجوف مذعور متذمر : « لم أستطع النوم هناك » . تهمّ لميا بالكلام غير أن فمها كان في تلك اللحظة حجراً صلداً . يتكلم مصطفى ، وصوته طير أسود ملطخ بالطين : « حظي طيب لأن المقبرة ليست بعيدة عن البيت ولم أصادف في أثناء سيري أي دورية شرطة . لكم أشفق على الناس الذين يدفنون في مقابر بعيدة عن بيوتهم فيضطرون الى النوم في قبورهم » .

صوت مصطفى يخفت تدريجيا ليتلاشى بعد هنيهات

تاركاً لميا وحدها مفتوحة العينين تحملق الى السقف .
وفجأة دهم نظراتها ذعر عارم لحظة تناهى اليها قرع شديد على الباب ، ووجدت نفسها تهرع نحو الباب وتفتحه بتردد فاذا بشرطيين يرتديان ثيابا بيضاً ، وبادر أحدهما يقول لها : « أين زوجك مصطفى الشامي ؟ لماذا سمحت له بالنوم والعودة ؟ ألا تعرفين أن فعلتك هذه مخالفة للقانون ؟ » .
ودخل الشرطيان البيت ، واتجها فوراً الى الغرفة ، فدخلاها وهما يدمدمان ساخطين ، وما ان أبصرا مصطفى حتى راحا يشتمانه ، فاستيقظ مرتاعاً ، وأعول مستغيثاً ، فلم يأبه الرجلان له ، وأنزلاه عن السرير وحملاه كأنه قطعة من الخشب ، وغادرا المنزل بينما كان بكاء مصطفى يشتد ويتصاعد عبر سكينة الليل ولولة لا نهاية لها .
ولم تمض سوى لحظات حتى هيمن السكون ثانية على البيت ،فعاودت لميا الاستلقاء على السرير ، ولكنها نهضت بعد لحظات وأضاءت النور ، ووقفت أمام المرآة ، ونظرت الى وجهها مليا ثم ابتسمت وأطفأت النور ، وتمددت على السرير مستسلمة لنوم عميق، وظل وجهها محتفظاً بالابتسامة .

وكان مصطفى الشامي قد مثل آنئذ أمام قاض وديع الابتسامة ، وجهه متجعد ، وعمره آلاف السنين ، وقد وجه الى مصطفى تهمة الفرار ، ولم يجد مصطفى ما يرد به سوى أن القبر مكان غير صالح للانسان ، فضحك القاضي مسروراً ثم نطق حكمه . وبعدئذ انقض الرجال البيض الثياب على مصطفى واقتادوه الى أرض فسيحة خضراء ، وهناك أنبىء أنه سيشتغل في بناء القصور ، فلم يفه بكلمة ولم يطلق صرخة استغاثة وتوسل ، انما تلفت فيما حوله كحيوان سمع انصفاق باب القفص ، وكانت عيناه طفلين مذبوحي العنق .

وفي تلك اللحظة كانت الارض الجرداء والارض الخضراء ، لهما سماء واحدة مصنوعة من قضبان فولاذية .

الصقر

مات أبي قبل عام ، وها اليوم أذهب لزيارته ، وأقف بين الأضرحة البيض متصنعاً الخوف والحزن والانكسار ، وأتلو سورة الفاتحة بصوت خاشع ، وأهبها لروحه ، فأسمعه يصيح بحنق : « يا ولد .. أخجل .. كف عن التدخين » .

فأرتبك ، وأرمي السيجارة أرضاً ، وأسحقها بكعب حذائي بينما يتابع أبي صياحه متسائلاً : « أما تزوجت ؟ » .

فأقول له متعجباً : « ولماذا أتزوج ؟ ! » .
فيقول لي بنزق : « الأبناء زينة الحياة الدنيا » .
فأقول له بعناد واصرار : « لن أتزوج ولا أريد أن أكون أبا » .
فيزعق غاضباً ، فأسارع أقول له بمرح : « لا تزعل يا أبي . الزعل يضر بصحتك » .
فيشتد غضب صيحاته ، وأهرول خارجاً من المقبرة ، وأعود الى البيت ، وهناك ألفيت حبيبتي مستلقية على السرير مغمضة العينين ، فطلبت منها غسل جواربي ، فرفضت زاعمة أنها متعبة ، فذبحتها دون أن ترتجف يداي ، وطردت الشمس من السماء ، وظللت وحيداً على سطح الارض ، شرياناً أسود اللون ، لا يملك فماً يصرخ ، وتطأه جياد ليل أعمى. ولما أقبل الصباح ، قصدت المقبرة بلهفة غير أن أبي ظل صامتاً ، فاضطررت الى مغادرة المقبرة ، محني الظهر ، متعب الخطا ، وسرت في الشوارع رجلا نحيلا يرتعش في شرايينه حب عارم للموسيقى والبحر ، غير أن رجال الشرطة الذين لا يحبون الموسيقى ويكرهون البحر ، اعترض واحد منهم طريقي ، وابتدرني قائلا بصوت صارم خشن : « أنت تهين

البلد » .

فأدركت حالا أن الاطفال ليسوا وحدهم يخافون من الشرطي ، وقلت بصوت حاولت جهدي أن أخفي ارتجافه : « أنا ؟ ماذا فعلت ؟ » .

« ـ ظهرك .. ظهرك المقوس يسيء الى سمعة البلد . الجياع والمرضى وحدهم يسيرون مثلك » .

« ـ أنا جائع ومريض فعلا » .

« ـ وقح . تقول انك جائع ومريض ؟! كلامك هذا يتضمن هجوماً صريحاً على الدولة » .

« ـ آسف آسف . لم أقصد أن أتهجم على أحد » .

فأشار باصبع طويلة الى وجهي، وقال : «ووجهك ؟» .

« ـ وجهي ؟ ما بـه ؟ » .

« ـ أنظر الى مرآة . وجهك عابس . لماذا ؟ » .

« ـ لأني بلا عمل » .

« ـ أسكت . أتجرؤ على انتقاد القوانين ؟ » .

« ـ أنـا ؟! » .

« ـ هس . اقفل فمك وابتعد عن وجهي واحذر أن تمشي في الشوارع » .

فسرت فوراً بخطى حيوان مطارد منطلقا نحو البيت. وكانت أشجار الشوارع صفراء ، عارية الاغصان ،

بلا عصافير ، فالعصافير هجرت أعشاشها و أمست تعمل في ملهى ليلي .

وأبصرت في أثناء مسيري امرأة تسأل ولداً صغيراً عن سبب بكائه ، فقال لها : « ضربني الاولاد » .

فربتت المرأة على رأسه ، وقالت بحنو : « كف عن البكاء ، واضرب من يضربك » .

فاستولى عليّ الفرح ، فالصقر الذي يحيا في بيوت الفقراء سيصعد يوماً الى أعلى ويمتلك سماء المدينة غير أن فرحي انطفأ بعد قليل اذ اعتقلني رجال الشرطة لأنـي كنت أتثاءب في الشارع ، واقتادوني تواً الى المحكمة ، وهناك سألني القاضي : « هل كنت فعلا تتثاءب ؟ » .

وكانت الشمس آنذاك خارج المحكمة عصفوراً ذهبي الجناحين ، فتثاءبت ، وقلت للقاضي : « نعم . كنت أتثاءب » .

فقال القاضي بلهجة غاضبة : « اذن أطلب ما تشتهي » .

فأخبرته أني لا أشتهي شيئا ، فمسح جبينه بمنديل من حرير أبيض ، ثم نطق حكمه ، وبعدئـذ غادرت قاعة المحكمة يحيط بي عدد من رجال الشرطة ، وكانت بانتظاري سيارة تشبه تابوتاً عتيق الخشب ،

تولت نقلي الى ضفة نهر من الانهار السبعة ، وهناك أوثقني رجال الشرطة بالحبال ، وربطوا بقدمي حجرين ثقيلين ، ثم قذفوا بي الى النهر ، فغصت حالا في مياهه مندفعاً الى القاع مغمض العينين والفم محاولا أن أتخيل مدينة تحترق تحت سماء خضراء وقمر أسود . وعندما أراد فمي أن ينادي أمي مستغيثا ، خنقت المياه صرخته ، وأجبرته على الصمت . وهكذا حرمت التثاؤب تاركاً الشمس تشرق كل صباح .

الذي أحرق السفن

١ ـ الاعتقــال

الأشجــار الخضراء في الشارع كفت عن الغناء لحظة تحلق عدد من رجال الشرطة المتجهمي الوجوه حــول رجل يمشي على الرصيف سيفا هرما ، رمحا متعبا ، آن لــه أن يخلــد الى الراحــة بعد انتصاره في آلاف المعارك ، وابتدره واحد منهم قائــلا له بلهجة فظة : « أعطنا هويتك » .

فتقبل الرجل لهجة الشرطي باستنكار ، وأوشك أن

يستسلم لحنق عارم ، لكنه اكتفى بالابتسام باستعلاء ومد يده الى جيبه ، وأخرج هويته ، وقدمها للشرطي الذي ألقى عليها نظرة سريعة ثم قال متسائلا : « أنت اذن طارق بن زياد ؟ » .

فأجاب الرجل باعتزاز : « نعم أنا طارق بن زياد » . عندئذ قال الشرطي ساخراً : « هلا تفضلت بمرافقتنا ؟ » .

« ـ الى أين ؟ » .

« ـ الى المخفر » .

« ـ المخفر ؟ ولماذا ؟ » .

« ـ مطلوب للتحقيق » .

« ـ أنا ؟ أنا طارق بن زياد ؟! » .

« ـ لا يهمنا من تكون . أنت الآن شخص تقضي الاوامر باعتقالك حياً أو ميتاً » .

فقطب طارق بن زياد جبينه بينما كان الدم المتدفق في شرايينه رعداً شرساً ، غير أنه لم يكد يهمّ باستئناف سيره حتى طوقه رجال الشرطة وأمسكوا به ، فحاول الافلات من أيديهم ، فبادروا يضربونه بقسوة وتشف حتى أرغموه على الكف عن المقاومة ، وتهاوى أرضا يغمره الخجل والدم .

٢ ـ الاستجواب

في اليوم الاول خلق الجوع
في اليوم الثاني خلقت الموسيقى
في اليوم الثالث خلقت الكتب والقطط
في اليوم الرابع خلقت السجائر
في اليوم الخامس خلقت المقاهي
في اليوم السادس خلق الغضب
في اليوم السابع خلقت العصافير وأعشاشها المخبأة
في الاشجار
وفي اليوم الثامن خلق المحققون ، فانحدروا تواً الى
المدن ، وبرفقتهم رجال الشرطة والسجون والقيود
الحديدية .

« طارق بن زياد .. أنت متهم بتبديد أموال
الدولة » .
« ـ مخطئون . أنا لم أبدد أية أموال » .
« ألست أنت الذي أحرق السفن ؟ » .
« ـ حرق السفن كان لابد منه لكسب النصر » .
« لا نريد سماع أعذار . أجب عن سؤالنا فقط .
هل أحرقت السفن أم لم تحرقها ؟ » .
« ـ أنا أحرقت السفن .. » .

« وأحرقتها دونما اذن ؟! لماذا لا تجيب ؟ هل حصلت على اذن من رؤسائك بحرق السفن ؟ » .

« ـ اذن ؟! الحرب تختلف عن الكلام في المقاهي والشوارع » .

وتأمل طارق بن زياد بعينين مفعمتين بالازدراء والنقمة وجوه المحققين المحيطين به ، ثم سألهم بهدوء : « أين كنتم وقت الحرب ؟ » .

« كنا نؤدي واجبنا » .

« نحن أيضا حملنا السلاح » .

فصاح طارق بن زياد بصوت نزق : « حملتم السلاح وجلستم وراء المكاتب تحتسون الشاي والقهوة وتتحدثون عن الوطن والنساء » .

فضحك المحققون ثم تعالت أصواتهم جوفاء صارمة باردة :

« أنت خائن » .

« حرق السفن كان ضربة لقوة الوطن » .

« من الذي استفاد من حرق السفن ؟ لا أحد سوى العدو » .

« تكلم . السكوت لن ينفعك » .

« لدينا الوثائق التي تثبت خيانتك وتعاونك مع

العـــدو » .
« الشعب يعرف كيف يعاقب الخونة » .
وهجـــم البحر والأعداء ، وامتزجا بصرخة رجـــل :
« البحر وراءكم والعدو أمامكم » .
فصاح طارق بن زياد بصوت متهدج : « ولكني أنـــا الذي هزم الأعـــداء » .
فقيل له ان ما يقوله لا علاقة له بالتهمة الموجهة اليه.

٣ ـ مشروع خطبة

... ومن أجل أن يظل الوطن حراً سعيداً ، عشتم أيها المواطنون الشرفاء مئات السنين بلا خبز ، عشتم بلا حرية ، عشتم بلا كرامة ، نسيتم الابتسامة ، كرهتم الورد والقمـــر وأغـــاني الحب ، فحمـــى الله اليوم وطننا الغالي من أخطار الخونة المتآمرين مع العدو.

٤ ـ الاعـــدام

هربت النجوم، فهاهم قد أتوا ، وفتحوا باب الزنزانة ودلفوا الى داخلها جراداً جائعاً ، ولم يدهشوا عندما ألفوا طارق بن زيـــاد جثة هامـــدة ، انمـــا سارعوا ينقلونه الى ساحة المدينة ، وهناك تلوا الحكم باعدامه شنقاً ، ثم سألوه عن رغباته الاخيرة ، فلم يفه بكلمة،

فاعتبروا صمته دليلا على عدم وجود ما يرغب فيه، وبعدئذ تدلى مشنوقاً .

٥ ـ من مواطن مثالي

الى السيد مدير الشرطة :

خضوعا لاوامركم ، أرجو السماح لي أن أموت .

المتهـم

دخـل شرطي بدين الى المقبرة ، ومشى بضع خطـا مترددة بين الاضرحة البيض ، ثم وقف حائراً لحظة ، صاح بعدها بصوت ممطوط : « عمر الخيام » .

لم يجب أحد ، فأخرج من جيبه منديلا أبيض وسخاً، وتمخط في طياته ثم كوره وأعاده الى جيبه ، وصاح بصوت حانق : « عمر الخيام .. عمر الخيام .. أنت مطلوب للمحاكمة » .

فلم يجب أحـد ، فغادر الشرطي المقبرة عائـداً الى

مخفره ، وهناك كتب تقريرا وصف فيه ما حدث مؤكداً أن عمر الخيام رفض حضور المحاكمة ، وقدم تقريره الى رؤسائه الذين تجهمت وجوههم استنكاراً ودهشة ، وبادروا الى اصدار أوامرهم ، فانطلق حالا الى المقبرة عدد من رجال الشرطة يحملون المعاول والرفوش ، فنبشوا قبر عمر الخيام ، وأخرجوه من تحت التراب متهدلا مغبراً مهترىء اللحم ، وحملوه الى قاعة المحكمة حيث مثل أمام القاضي ·

ولقد قال القاضي بلهجة وديعة وقور : « أنت ياعمر الخيام متهم بكتابة شعر يمجد الخمرة ويدعو الى شربها ، وبما أن بلادنا تطمح الى تحقيق الاستقلال الاقتصادي ، وقوانينها تمنع استيراد البضائع الاجنبية ، وبما أن بلادنا تفتقر الى معامل تصنع الخمرة ، فان شعرك يُعتبر تحريضا على المطالبة باستيراد البضائع الاجنبية ، يعاقب عليه القانون دون هوادة ، فهل تقرّ وتعترف بذنبك ؟ لماذا لا تجيب ؟ تكلم . السكوت مؤذ . حسناً . سكوتك يدل على انكارك للتهمة . اذن سنحاول الان أن نعرف ان كنت بريئاً أو مذنبا فالعدالة هي غايتنا . أولا .. من يكتب الشعر لابد من أن يتقن الكتابة والقراءة .

هـــل تجيد القراءة والكتابـــة ؟ أنت تنكـــر ؟! اذن سنستدعي الشهود » .
الشاهـــد الاول : (صاحب مكتبة) : « المتهم كـــان يشتري من مكتبتي كتباً كثيرة العدد » .
القاضي : « أي نوع من الكتب كان يشتري ؟ » .
الشاهد الاول : «كان يشتري كتباً متنوعة الموضوعات ولكنه كان يفضل الكتب التي تتحدث عن الحب » .
القاضي : « هاها .. اذن كان يحب الكتب الجنسية؟! رحمة الله على الاخلاق الحميدة . قل لي : ألم يكن يشتري كتباً سياسية ؟ » .
الشاهد الاول : « الكتب السياسية ؟! أقسم أن يدي لم تمس يوماً كتابا سياسيا . وربما كان يشتريها من مكتبة أخـــرى » .
القاضي : « اذن كان يشتري كتباً ؟! » .
الشاهد الاول : « وكان يشتري أيضاً ورقـــاً أبيض وأقلامـــا » .
القاضي : « الله أكبر . لقد زهـــق الباطل وانتصر الحق . المتهم لو لم يكن يعرف القراءة والكتابة لمـــا أنفق ماله على شراء الكتب والورق والاقلام » .
الشاهد الثاني (امرأة هرمة) : « كل ما أعرفه هو

أن المتهم لا يحب سوى الكلمات وقد أخبرتني امرأة كانت تحبه أنه اعترف لها أنه يحب الكلمات أكثر من حبه لاجمل امرأة في الدنيا » .
القاضي : «يحب الكلمات ؟! ياله من شذوذ ! المواطن الصالح يحب أمه والحكومة فقط » .
الشاهد الثالث (صحفي) : « اطلعت على أشعار المتهم فوجدتها تخلو من أي مديح لمحاسن الحكومة ».
القاضي : « هذا برهان قاطع على أن المتهم لا يحب الشعب » .
الشاهد الرابع (رجل له لحية طويلة) : « أقسم بالله أني سمعت بأذني اللتين سيأكلهما الدود بعد موتي، سمعت المتهم يقول ان الخمرة تهزم الحزن » .
القاضي : « هذا كلام يصبح خطيراً جداً اذا ثبت للمحكمة أن الحزن متفش بين الناس » .
الشاهد الخامس (رئيس مخفر شرطة) : « وردتنا تقارير كثيرة حول النشاط الهدام الذي يقوم به المدعو الحزن ، ولكننا لم نتمكن حتى الآن من اعتقاله ولا يزال البحث عنه جاريا » .
الشاهد السادس (سجين) : « الحزن هو الذي أغراني بأن أطالب أن أحيا حراً » .

الشاهد السابع (سجين) : « الحزن أرغمني على شتم الحكومة » .
الشاهد الثامن (سجين) : « الحزن هو الذي دفعني الى الاشتراك في مظاهرة » .
الشاهد التاسع (سجين) : « الحزن هو الذي حرضني على أن أحاول الهرب من السجن » .
الشاهد العاشر (سجين) : « الحزن وحده جعلني أكره رجال الشرطة » .
القاضي : « لقد أثبتت افادات الشهود أن أشعار عمر الخيام ليست الا دعاية صريحة للخمرة ، ودعوة سافرة الى استيراد البضائع الاجنبية ، وتنفيذاً لمخطط مشبوه يهدف الى اثارة الشعب ، كما ان افادات الشهود أثبتت أيضا تعاون عمر الخيام مع الحزن الذي تبين للمحكمة أنه ليس سوى جاسوس من جواسيس الطابور الخامس ، يستخدمه أعداؤنا من أجل تعكير الامن وبث الاضطراب » .
وسكت القاضي هنيهة متنهداً بارتياح وغبطة ثم استأنف كلامه فحكم على عمر الخيام بمنعه من كتابة الاشعار منعاً باتاً .
وتولى رجال الشرطة نقل عمر الخيام الى المقبرة ،

وأعادوه الى حفرته ، وأهالوا فوقـه التراب بعد أن أتلفوا ما يملك من أوراق وأقلام غير أن الحزن ظل طليقاً يتابع نشاطه الهدام .

اللحى

هربت الطيور من سمائنا ، وكف الاولاد عن اللعب في الحارات ، وتحول غناء العصافير السجينة في الاقفاص الى شهيق خافت مرتجف ، وبدأ القطن المعقم يختفي من الصيدليات ، فهاهي ذي يا أيها السادة جيوش تيمورلنك تطوق مدينتنا غير أن الشمس لم يصبها الذعر وظلت تشرق كل صباح .

ونحن رجال المدينة ، لم تشحب وجوهنا انما اتسمنا برباطة جأش وحمدنا الله الذي خلقنا رجالا ذوي

لحى ولم يخلقنا نساء بلا لحى ، ثم عقدنا اجتماعاً للتشاور بحثاً عن خلاص . وكان أول المتكلمين شاباً نزقا يعمل بائعا لملابس نسائية ، وقد صاح بحماسة : « لنحارب » .

فوثبت عليه توا نظرات الازدراء ، فلاذ بالصمت ، واضطر وجهه الى الاحمرار خجلا ، وعندئذ نهض صاحب أكبر لحية في مدينتنا ، وتكلم بلهجة رصينة : « الحرب لا يحتاج اليها الا من كان ليس موجوداً ، ونحن ـ ولله الحمد ـ ذوو لحى ، اذن نحن موجودون » .

فتعالت فوراً الاصوات محبذة مؤيدة ، وتقرر بعد جدال قصير تأليف وفد يفاوض تيمورلنك ويترأسه رجل هرم له لحية تضرب ركبتيه حين يمشي .

ولمدينتنا سبعة أبواب ، وقد خرج الوفد من أحدها ، تتقدمه راية بيضاء ، وسار بين جنود أكثر عدداً من النجوم والجراد ، منهمكين في التنقيب عن القمل في ثيابهم الداخلية تاركين سيوفهم للشمس تجفف ما علق بها من دم وطين .

ودلف الوفد بخطى متئدة وقورة الى داخل خيمة تيمورلنك ، فاذا تيمورلنك شاب صغير السن ، له عينا طفل وابتسامة عجوز .

رئيس الوفد : « نحن ننشد السلام ، ومدينتنا لك دونما حرب ولكن مدينتنا صغيرة وفقيرة لا تملك ذهباً ولا بترولا ، ونساؤنا كالماعز ويسعدنا الخلاص منهن » .

تيمورلنك : « أنا أكره اراقة الدماء ولا أبغي ذهباً أو نساء جميلات ولكني علمت أن الحلاقين في مدينتكم جياع بسبب حرصكم على تربية لحاكم ، وهذا ظلم أستنكره خاصة وان حياتي مكرسة لنصرة المظلومين ونشر العدالة في أرجاء الارض ، فالانسان يجب ألا يجوع » .

فاستولت الدهشة على أعضاء الوفد ، وتبادلوا النظرات الحائرة .

تيمورلنك : « لن ترحل جيوشي عن مدينتكم الا بعد أن تحلقوا لحاكم وتزدهر أعمال الحلاقين » .

رئيس الوفد : « ما تطلبه لأمر خطير ولا بد لنا من الرجوع الى المدينة قبل اعطاء جواب نهائي » .

تيمورلنك : « أما أن تحلقوا لحاكم وأما أن تهلكوا .. اختاروا » .

فران الصمت والرعب على أعضاء الوفد ، وبدت لهم الحياة في تلك اللحظة أمرا حسنا، فالسماء عميقة

الزرقة ، والورد الاحمر أجمل من مواويل يرددها صوت عاشق معذب ، والصرخات الاولى للاطفال تنبت في الدم عشبا أخضر ، وفم المرأة المرتعش قمر يذبح الليالي بمدية من فضة ، غير أن أعضاء الوفد ما لبثوا أن تخيلوا أنفسهم واقفين أمام المرايا يحدقون الى وجوههم حليقة بلا لحى ، فطغى عليهم الاستنكار والسخط ، وتحول الموت آنذاك الى سمكة حمراء تتألق تحت شمس من ذهب .

وتكلم رئيس الوفد وهو يشعر أن رجال مدينتنا جميعا يصغون بخشوع ، فقال بصوت بارد : « غداً تختار مدينتنا مستقبلها » .

وعاد الوفد الى مدينتنا ، وردد على مسامعنا ما قاله تيمورلنك ، فعمّ الغضب ، وصاح واحد منا : « ما الفائدة اذا ربحنا الحياة وخسرنا اللحى ؟! » .

وفي اليوم التالي ، هجمت جيوش تيمورلنك على مدينتنا ، فدكّت الاسوار ، وحطمت الابواب ، وذبحت الرجال كلهم .

وهكذا أتيح لتيمورلنك أن يحملق بتشف الى جبل من رؤوس الرجال ، وكانت الوجوه صفراء ملطخة بالدم ، ولكنها كانت باسمة فخورة بلحاها ، ولم

تعبس ـ كما قيل ـ وينأى عنها فرحها وزهوهـا الا لحظة أمر تيمورلنك الحلاقين بقص لحاها .

وهكذا يا أيها السادة هزمنا دونما ثأر ، وجللنا عار لا يمحوه أي دم .

النسيان

وفد على المدينة رجل غريب ، وجاب طرقاتها زارعاً الرعب حيثما حـل . كان عجوزاً مجعد الوجـه ، ذا صوت خشن أبح ، وكانت الكلمات تتدفق من فمـه حاملة النذير بأن الارض موشكة على الدمار ، ولم يبق لها من العمر سوى زمن قصير ثم يقبل الطوفان ويهلك الاحياء جميعا .

ودب الرعب بين أهل المدينة ، وأيقنوا أن الموت لابد قادم ، فشحبت وجوههم وعلاها الوجـوم غير أنهـم

اكتسبوا جرأة وشجاعة غريبتين فلم يعد الملك وجنده أمراً يخشى، وامتنعوا عن دفع الضرائب غير مكترثين بالسجن والتعذيب والمشانق .

ودهش الملك أشد الدهشة لتبدل أحوال رعيته ، وحار في تفسيره ، فكلف وزيره بتقصي الامر .

عاد الوزير بعد أيام ، وقال للملك : «انهم يعتقدون أن الموت قادم» .

فقال الملك متعجباً : « الموت قادم ؟! » .

فأجاب الوزير قائلا : « ثمة رجل غريب جعلهم يؤمنون أن الموت قادم » .

فغضب الملك ، وصاح : « احضروا ذلك الغريب فوراً » .

فابتسم الوزير ، وقال : « انه في سجن من سجون مولاي » .

وأحضر الغريب ذليلا مهاناً مقيداً بالسلاسل الحديدية وقد رمقه الملك بنظرة متفحصة فضولية ثم قال له : « أأنت من ينشر الشائعات القائلة ان الهلاك سيجتاح مملكتي ؟ » .

فأجاب الرجل الغريب : « ما أقوله ليس شائعة بل الحقيقة . لم يبق من الانسان سوى اللحم والعظم ،

وقد حان أوان هلاك الجسد الشرير ، ولا شيء يستطيع انقاذه من الموت » .

فقال الملك بهدوء : « ما قلته لهو الحق فعلا ، فلا شيء يستطيع انقاذك من الموت » .

والتفت الى الجلاد الذي يقف قربه حاملا سيفه ذا النصل المحدودب ، وقال له مشيراً بسبابته الى الغريب : « اقطع رأسه » .

فأهوى الجلاد بسيفه فوراً على عنق الغريب ، فتدحرج الرأس على الأرض ثم تبعه الجسد الذي تخبط لحظات ثم همد .

وعندئذ تنهد الملك بارتياح ، وقصد الحديقة ، وهناك استدعى الملكة وأمرها بالقعود بجواره ثم سألها : « أي نوع من الازهار تحبين ؟ » .

فأشارت الملكة الى فمها ، وقالت : «القرنفل الاحمر» .

فأمر الملك أن تقطع أشجار الحديقة ، وأن يزال جميع أنواع الورد ثم أن تزرع الحديقة كلها قرنفلا أحمر اللون .

ولقد نما القرنفل الاحمر فيما بعد ، فابتهجت الملكة

ابتهاجاً عظيماً اذ كانت الحديقة تتوهج بنور قرمزي كلما جنحت الشمس للافول . وابتهج الملك أيضا ، فالذهب تزايد في خزائنه ، ونسيت رعيته الموت .

عباد الله

فرح الحفاة ، فالسحب كانت رحيمة وتحب الاحسان الى عباد الله المعوزين ، فأمطرت أحذيـــة من مختلف المقاييس غير أن عبد الله بن سليمان كان نائما فلم يفرح اذ لــم يظفر بحذاء ، وظلت قدماه حافيتين • وهكذا فقد حدق عبد لله بن سليمان الى أحذية الناس السـائرين في الطرقات بينمــا يفترســه الحســد . والحسد وقانا الله منه أصل البلاء ، وهو كما تعلمون شر عظيم والمرء الحسود ينال ما يستحق من عقاب ،

فالله ساهر لا تخفى عليه خافية ، لا يهمل ولا يمهل .
لقد ولد عبد الله بن سليمان حافيا ، وترعرع حافيا ، ويسير حثيثا الى القبر بقدمين حافيتين ولكن ابليس اللعين خزاه الله وسوس في أذنيه وزين له أن يصير من عباد الله مالكي الاحذية ، فلم يرفض عبد الله بن سليمان اغراء ابليس انما خضع له . ولا بد أنكم تعلمون أن ابليس ذو وجه يخلو من الوسامة ، وله قرنان وذيل .
ولم يكن عبد الله بن سليمان يملك من النقود ما يكفي لشراء حذاء ، ولذا لم يتردد في اللحاق برجل حذاؤه جميل لامع الجلد ، ثم انتهز فرصة سيره في طريق فرعية تخلو من المارة، فانقض عليه بخنجره المحدودب النصل الذي ورثه عن أبيه ، وطعنه في صدره طعنة واحدة ، فهوى الرجل في الحال كحجر ثقيل وارتطم بالارض ، فسارع عبد الله بن سليمان الى الركوع بجواره محاولا انتزاع الحذاء من قدميه .
وفي تلك اللحظة مرت دورية من رجال الشرطة ، فقبضت على عبد الله بن سليمان الذي لم يجرؤ على انكار فعلته البشعة ، فالخنجر ملطخ بالدم ، والرجل الممزق الصدر يتخبط في دمه وتتحشرج أنفاسه ،

وقد أشار الى عبد الله بن سليمان معلنا أنه هو قاتله .

حدث ما حدث في يوم السبت ، فقضى عبد الله بن سليمان يوم الاحد في السجن ، واقتيد الى المحكمة في اليوم التالي ثم أعيد الى السجن في اليوم نفسه ، وبقي فيه حتى يوم الجمعة . ولا بد أنه كما تعلمون قد أجهش بالبكاء ، نادما تائبا ، وطلب من الله المغفرة وحسن الختام ، ولعن ابليس الوسواس الخناس .

وفي يوم الجمعة أفاق الناس من نومهم ، وتناولوا طعام الافطار بشهية ثم تمطوا وتثاءبوا بتكاسل غير أن بعضهم أدى تمرينات رياضية ، فالرياضة كما تعلمون مفيدة للغاية وتنشط الدورة الدموية .

وما أن تعالت أصوات المؤذنين فيما بعد داعية الى صلاة الظهر حتى لبى الرجال النداء وغادروا بيوتهم قاصدين المساجد ، وهناك أدوا صلاة الظهر ثم طالبوا الله في ختامها بمنحهم ما يبغون لانهم من عبيده الصالحين المتقين .

وعندما انتهت صلاة الظهر غادر المصلون المساجد ، وساروا في الطرقات مشدودي القامات ، وكانت وجوههم مطمئنة راضية ، وأحذيتهم تضرب الارصفة

ببهجة . وعندئذ اقتيد عبد الله بن سليمان الى ساحة واسعة ترابيـــة الارض ، ويطوقها الجند المسلحون بالبنادق .

وبادر النـــاس الى الوقوف خلف الجنـــد ، وراحــوا يتزاحمون ويتصايحون . وأوقف عبد الله بن سليمان في وسط الساحة ، وأوثقت يداه خلف ظهره ثم جاء رجل ذو لحيــة بيضاء طويلة ووقف بالقرب منه ، وبدأ يقرأ في ورقة صفراء .

وحين انتهى الرجل الملتحي من القراءة ، دلف الى وسط الساحة رجال عديدون يرتدون الثياب البيض.

« ــ من هؤلاء ؟ » .

« ــ أهل القتيل رحمه الله » .

وابتدأ الرجال يطوفون حول عبد الله بن سليمان المقيد اليدين . الله أكبر . الله أكبر .

وأطلقت امرأة ما زغاريد مديدة حادة في اللحظة التي انقض فيها الرجال على عبد الله بن سليمان منتضين خناجرهم المحدودبة النصال .

وترنح عبد الله بن سليمان بينما كانت الخناجر تغرز في لحمه ثم تسحب منه بحركات غاضبــة حتى صار جســمه كله ثقوبا يتدفق منهــا الدم بغزارة . ولم

يستطع الصمود طويلا فسقط على الارض . وجثا الرجال متحلقين حوله ، وتابعوا تسديد الطعنات الى جسده ذي القدمين الحافيتين .

وبعد قليل حمل عبد الله بن سليمان الى سيارة الاسعاف كتلة لحم ممزقة تقطر دما .

وهكذا كما ترون دحر ابليس ، ودفن عبد الله بن سليمان حافي القدمين في حفرة وأهيل فوقه التراب ، وكانت نهايته عبرة للضالين الذين لا يريدون أن يظلوا حفاة حتى موتهم .

النابالم النابالم

يمشي وليلى في الشوارع قطين مذعورين ، فما تبقى من المحاربين ينتظر مقدم الموت في غرف المستشفيات ، والثياب المغسولة معلقة على شرفات الابنية رايات بيضاء ترفرف تحت شمس حزيران .

وارتعدت شفتاه وهو يتمتم متسائلا : « ألن ينجو أي واحد منهم ؟ » .

فأجابت ليلى على الفور : « سيموتون موتا بطيئا . ليتك تبصرهم يا أحمد . ليسوا بشرا . كتل لحم

محترقة سوداء ، لها رائحة لن تنساها حتى بعد أن تموت » .

ونكس أحمد رأسه قليلا وأبصرهم : نوعا جديدا من مخلوقات الارض ، تسير واطئة القمر والورد .

وتابعت ليلى قائلة : « البارحة دخلت الى الغرفة امرأة عجوز من الريف ، تبحث عن ابنها الجريح فلم تعثر عليه وهمت بالخروج ، عندئذ سمعت صوتا يناديها . صاحب الصوت كتلة سوداء منتفخة تخلو من أي ملامح بشرية عدا العينين . لم تبك أو تصرخ . دنت من السرير بادية الغبطة وجلست على طرفه وحيت ولدها بحرارة . سألته عن صحته ، ولم تنتظر سماع جوابه انما طفقت تتحدث . اخوته الصغار كالعفاريت يتضاربون باستمرار ويتراشقون بالحجارة ويكسرون الصحون وزجاج الشبابيك ويشدون ذيل القطة . والده امتنع عن التدخين . اضحك . ستصير خالا . أخته المتزوجة ستلد بعد شهرين . صهرك يريد بنتا أما أختك فتريد صبيا . أبوك طلب من أختك حسما للخلاف أن تلد صبيا وبنتا .

أراد الابن أن يضحك ، فتجعد جلد وجهه وتشقق توا ونزف دما أصفر » .

انفجرت القنبلة دونما دوي ، وغمر أحمد السائل الناري ، فقال لليلى بلهجة خشنة : « كفي عن الحديث » .

فرمقته ليلى بدهشة ثم قالت بسخرية : « أمرك مطاع . البارحة شاهدت نجمة تشتري سندويشة ثم تركب عربة من فضة يجرها أمير اسمه الليل . أأعجبك الحديث أم أسكت ؟ » .

فلم يفه بكلمة ، وتأملها مبتسماً وهي في ثيابها الشبيهة بملابس الجنود : امرأة جميلة عذبة ، لكنها كانت في تلك اللحظة سيفا صارما مدحورا .

تنهدت ليلى ثم قالت : « كم أنا متعبة يا أحمد » .

« ـ هيا نسترح عندي في البيت » .

فهزت رأسها رافضة عرضه ، فقال أحمد حانقا : « الحب ليس مشيا في الشوارع ومشاهدة أفلام وحديثا عن المستقبل فقط » .

ظلت صامتة . وانفجرت القنابل في يوم من أيام المستقبل ، وغرق أحمد في سائلها الناري ، وتقلص وجهه خاضعا لعذاب طاغ .

قالت ليلى بلهجة وديعة : « زعلت ؟ » .

فأجاب فورا : « ستدخلين يوما الى غرفة من غرف

المستشفى ، وحين تهمين بالخروج سأناديك فتأتين وتجلسين على طرف سريري وتتحدثين عن الكتب والافلام » .
فأمسكت بيده قائلة : « أسكت . ما هذا الحديث ؟ » .
فقال لها بلهجة شرسة متحدية : « اتركي يدي لئلا يراك أحد ويخبر أهلك » .
تحطم باب السجن ، وماتت الام ونصائحها ، ومات الاب كاره البنات اللواتي لا يجلبن للعائلة سوى العار والفضيحة .
« ـ ألست خائفة ؟ » .
فلم تتخل يدها عن يده . وغمر الفرح يده الخشنة ذات الاصابع الطويلة ، واضمحل عذابها المنبثق من الحنين الضاري الى اليد الانثى . وسارا صامتين سعيدين على الرغم من أن ما تبقى من المحاربين يحتضر في غرف المستشفيات .
وسارا أمدا طويلا حتى بلغا مفرق طرق ، وعندئذ توقف أحمد عن السير ، وأشار بيده الى بناية عتيقة صفراء اللون ، وقال : « أسكن هناك في غرفة على السطح . سأسبقك » .
وتركها دون أن يسمع جوابها ، وصعد درج البناية

راكضا ، وفتح الباب بيد مرتعشة ، ودلف الى الداخل وهو يلهث متعبا، وجلس على حافة السرير، وأغمض عينيه . عارية سيبصرها ، وحينئذ ستتلاشى شمس حزيران ، ويندفع الليل الى الطرقات كطلق ناري ، الليل الذي يملك ملايين النجوم، وأحس وهو يترقب مرتجفا انه موشك على الموت .

وبعد قليل ، سمع حركة ، ففتح عينيه بلهفة ، فاذا ليلى تغلق الباب وهي تضحك ، فتنهد بارتياح ، وسألها : « لماذا تضحكين ؟ ألم تعجبك غرفتي ؟ » .

« — رجل عجوز في الطابق الثالث حملق الي كأنه لم يبصر امرأة في حياته » .

« — له لحية ؟ » .

« — له لحية طويلة وظهر مقوس » .

« — هذا صاحب البناية » .

وظل جالسا على حافة السرير يحدق اليها مبهورا وهي تدنو منه . وتلاقى الفمان مخلوقين جائعين تواقين الى الفرح . وفي تلك اللحظة احرقت الارض ثياب الحداد، وغنى أبناؤها للعشب الاخضر، وانتحر الاعداء ، وتحولت قنابلهم الى ورد أحمر .

ورنّ جرس الباب . وظل الفمان متلاصقين غير أن جرس الباب دأب على الرنين بالحاح .

وفتح أحمد الباب ، فألفى أمامه رجلا عجوزا له لحية طويلة ، فتصنع الابتسام وقال بفتور : « أهلا وسهلا » .

فسعل العجوز مربد السحنة ثم قال : « اسمع يا جارنا حين قبلت أن أؤجرك هذه الغرفة اشترطت عليك أن لا تحضر اليها أي امرأة » .

« ــ هي خطيبتي » .

« ــ خطيبتك ؟! تشرفنا . عليها أن تغادر البناية حالا . بنايتي تسكنها عائلات محترمة » .

« ــ لا يحق لك التدخل في شؤون غيرك » .

« ــ البناية بنايتي ولا أسمح لاحد أن يجعلها مأوى للعاهرات » .

« ــ لا تسب والا ندمت » .

« ــ ماذا تقول ؟ أتهددني ؟ الحكي لا ينفع معك . كلمة أخيرة . اذا لم تغادر تلك المرأة البناية فورا ، فسأطلب الشرطة » .

« ــ هيا افعل ما تشاء » .

وصفق أحمد الباب بعنف، واستدار ليجد ليلى جالسة

على طرف السرير شاحبة الوجه .
وهمست قائلة : « هل أذهب ؟ » .
فهز رأسه بالرفض ، وجلس على مقعد يتطلع اليها أسيان . وتخيل النساء ينجبن أطفالهن كتل لحم منتنة محترقة .
وتساقطت قنبلة اثر قنبلة ، ودمرت المقاهي والمآذن والمدارس والمستشفيات ومخادع النوم ، وأحرقت الليل والمطر غير أن أحمر أمر بقذف المزيد من القنابل .

جـوع

لم يكن أحمد ملكاً وقد تنقل من مقهى الى مقهى دون أن يقابل أحدا يعرفه ، ولم يجد مفرا من أن يقصد صديقه الرسام الذي كان شديد الفقر .

ورحب الرسام بأحمد . وكان كريم الخلق ، سخيا ، فرسم على ورق أبيض دجاجة سمينة مشوية ، وقال لاحمد : « هذا هو الطعام الوحيد الذي أملكه » .

فضحك أحمد مبتهجا ، وأكل الدجاجة بشهية ، ولكنه تمنى لو كانت مغموســة في الزيت الممتزج بالثوم

المسحوق ، ثم مسح فمه بظهر يده وهو يقول :
« الحمد لله » .
وشكر صديقه الرسام بحرارة ، وصمت هنيهات ثم أضاف وهو يبتسم ابتسامة ماكرة : « بودي لو أسكر » .
« ـ لا » .
« ـ لماذا لا ؟ » .
« ـ أنا ضد الخمرة » .
« ـ جرعة صغيرة فقط » .
« ـ لا فائدة من التوسل فكل انسان يجب أن يكون له عدو ما وأنا عدوي الخمرة » .
« ـ الخمرة لا تضر » .
« ـ لا فائدة في التوسل فلن أغير موقفي » .
فحنق أحمد على صديقه البخيل ، وغادر مرسمه متضايقا أشد الضيق ، وسار في الشارع تحت شمس آب عجوزا عمره آلاف السنين ، وردد بصوت مرتفع:
« آه يا أمي » .
ولم يكد يمشي قليلا حتى ترنح وهمّ بالسقوط ، فأغمض عينيه باعياء ، فتوارت الشمس وعمت الظلمة ، وعندئذ سارعت أيد مجهولة وعاونته على

الصعود الى احدى المركبات ، وسمع أناسا يتهامسون:
« مولانا الملك أحمد مريض » .
وسارت المركبة ، ولم يسمع أحمد صوت دواليبها ولا صوت سنابك الجياد . وتوقفت المركبة بعد حين ، فأحس أحمد بقوة مباغتة ، فنهض ونزل من المركبة، فبادر أشخاص كثيرون الى الانحناء له.ودلف الى داخل قصر كبير ، يحيط به الخدم والجند .
« ـ أنا جائع » .
وجلس أحمد على مقعد وثير ، فأسرع الخدم وأحضروا طبقاً كبيراً ، ووضعوه أمامه قائلين :
« هذا أفخر ما في المطابخ الملكية » .
وأزاح أحمد الغطاء عن الطبق ، ففوجيء بطفل صغير حي ، فاقشعر جسده ، وعزم على الفرار غير أن يديه امتدتا ببرود الى الشوكة والسكين ،واقتطع بالسكين جزء من لحم الذراع ، وأطبقت الاسنان بنهم على قطعة اللحم الطرية الدامية بينما كان الطفل يعول عويلا حاداً .
وأقبلت امرأة ترتدي ثياباً سوداء ، وصاحت بصوت متهدج : « أكلت ولدي » .
فقال أحمد ببرود : « ستنجبين غيره » .

« ـ وكيف أنجب ولداً دون رجل ؟ » .
« ـ الرجال كثيرون » .
فجثت المرأة على ركبتيها هاتفة : « امنحني رجلا ».
فتكلم أحمد ، وقال وهو يشير بيديه الى الرجال المحيطين به : « لك أن تختاري أي رجل تشائين » .
فأخذت المرأة تتفحص الرجال مليا ، ثم قالت : «لقد اخترت الرجل الذي أريد » .
« ـ من هو ؟ » .
« ـ أنت » .
وكان باستطاعة أحمد أن يأمر بقطع رأسها غير أنه كان في تلك اللحظة فرحا للغاية ، فنهض وأمسك يدها وقادها الى احدى الغرف . وما ان أغلق الباب خلفه حتى سارعت المرأة تطوق عنقه بذراعيها مطلقة ضحكة ماكرة ثم تحولت الى أفعى سوداء ، والتفت حول عنقه ، وشددت الضغط عليه ، فصاح أحمد مستغيثا ، فهرعت أمه واحتضنته بلهفة قائلة له : « هيا اشرب الدواء » .
فدس رأسه في صدرها بحركة مفعمة بحنين قديم جارف . وبدأ ألمه بالزوال شيئا فشيئا . وفتح عينيه فاذا به جالس على كرسي في دكان حلاق ، يحيط به

أناس عديدون ، وكان وجهه مبتلا بالمـاء . فأدرك على الفور ما حدث . وكـان الحلاق رجـلا أشيب الشعر ، ابتسم لاحمد بود وقال له : « اغمي عليك بينما كنت تسير في الشارع » .

فنهض أحمد واقفاً . عندئذ قـال الحلاق متسائلا :

« هل تستطيع السير ؟ » .

فأحنى أحمد رأسه بالايجاب ، ثم غادر دكان الحلاق، وعاود المسير وحيـداً في الشارع . وتوقف بعد قليل حين اعترض طريقه رجل كهـل وابتدره متسائلا :

« أتعرف بيت الدكتور بشير البارودي ؟ » .

فأجاب أحمد بالنفي ، فقال الرجـل الكهل بلهجـة موبخـة : « وكيف لا تعرف عيادته ؟! انـه دكتور مشهور جداً » .

فابتسم أحمد ، وتابع مسيره بخطى بطيئة متوغلا في طريق فرعية ، تنتصب علـى جانبيها أبنية كثيرة . ودلف أحمد الى داخـل دكـان بقال ، وسأل البقال :

« أتعرف بيت الدكتور أحمد النظامي ؟ » .

« ــ لم أسمع بهذا الاسم من قبل » .

« ــ انه طبيب أطفال » .

وفكر البقال لحظات ثم قال : « لم أسمع بمثل هـذا

الاسم من قبل » .

« ــ انه طبيب أطفال . سألت عنه في عيادته فلم أجده فيها ، وقالت الممرضة انه موجود في بيته الكائن في هذا الشارع . أرجوك . ابني الصغير مريض وفي حالة خطرة » .

« ــ لم أعرف دكتوراً بهذا الاسم من قبل » .

فهز أحمد رأسه آسفاً ، واستأنف السير بوجه كئيب. وأبصر خادما صبية تخرج من احدى البنايات ، فاستوقفها قائلا : « هل تعرفين بيت الدكتور أحمد النظامي ؟ » .

فقالت الخادم : « أحمد النظامي .. أحمد النظامي » .

« ــ نعم .. اسمه أحمد النظامي . طبيب بارع . زوجي مريضة وهي بأشد الحاجة اليه » .

فقالت الخادم وهي تشير بيدها الى بناية صفراء اللون : « انه يسكن هناك ولا أعرف في أي طابق » .

فشكرها أحمد بامتنان ثم قصد البناية الصفراء ، ودلف الى داخلها ، وقرع جرس الباب في الطابق الاول ففتح الباب فوراً ، وأطل رأس امرأة هرمة ، فقال لها أحمد : « هنا منزل الدكتور أحمد النظامي ؟ » .

« ــ لا .. انه يسكن في الطابق الثاني » .

فارتقى أحمد الدرج الى الطابق الثاني ، وقرع جرس الباب . وانتظر حيناً من الوقت . ثم انفتح الباب عن رجل مشعث الشعر ، فبادر أحمد يسأله : « هنا منزل .. » .

فقاطعه الرجل قائلا : « انه يسكن في الطابق الثالث » .

فقال أحمد بدهشة : «من يسكن في الطابق الثالث ؟» .

« ــ ألا تريد منزل الدكتور ؟ انه يسكن في الطابق الثالث » .

فصعد أحمد الى الطابق الثالث دون أن تبارحه الدهشة ، وهناك ضغط على زر الجرس فلم يسمع أي رنين .

اذن الجرس معطل . فضرب بقبضته خشب الباب ، فانبعث من الداخل صيحة امرأة تقول : « اذهبي ياعفريتة وافتحي الباب » .

وبعد قليل فتحت الباب فتاة صغيرة السن شقراء ، وتطلعت الى أحمد باستغراب ، فقال لها أحمد :

« أين أحمد ؟ » .

« ــ أحمد ؟ » .

« ــ الدكتور أحمد » .

« ــ الدكتور أحمد ؟! » .
« ــ نعم .. الدكتور أحمد النظامي » .
« ــ الدكتور أحمد النظامي يسكن في الطابق الاول» .
« ــ شكراً يا آنسة . عدم المؤاخذة لاني أزعجتك . هل زوجك موجود ؟ » .
« ــ زوجي ؟ » .
« ــ ألست متزوجة ؟ » .

فنظرت الفتاة اليه بذعر ، وصفقت الباب ، فأسرع أحمد يهبط الدرج بسرعة ، وهرول في الشارع وهو يتخيل ان رجال الشرطة سيقبلون لاعتقاله وسيضربون رأسه بأحذيتهم الثقيلة .

وتنهد بارتياح حين أصبح داخل غرفته ، ووقف أمام المرآة فشاهد شاباً ذا وجه أصفر ، فقال له : « أهذا أنت يادكتور أحمد ؟ بحثت عنك طويلا . أنا مريض . افحصني » .

فقال الدكتور : « أنت مريض ؟ حسنا . أنا أوصيك بما يلي : كل لحماً وتفاحا » .

« هل يلائمني أكل التفاح ؟ »
« يجب أن يكون لون التفاح أصفر مشرباً بالحمرة » .
« والأجاص ؟ » .

« واحدة منه تكفي » .

« والعنب ؟ » .

« غير ضار . كل منه ما تشاء » .

فأحنى رأسه . وبحث في غرفته عن شيء يؤكل ، فوجد نصف رغيف يابس كان مخفياً تحت الكتب التي تغطي سطح الطاولة ، فبلله بالماء ثم أكله ببطء ثم تمدد على السرير ، وسرعان ما استسلم للسبات ، فشاهد في أثناء نومه امرأة جميلة ، فاحتضنها بحنان وضراوة ، وكان لحمها خبزاً أبيض ساخناً .

الشرطي والحصان

أوقف أبو مصطفى عربته بمحــاذاة الرصيف ، وربت بيد كبيرة متشققة على رأس الحصان ثم قصد الدكان القريبة ، وابتدأ يحمل على ظهره الاكياس الملأى بالحطب ، وينقلها الى العربة .

وكان الحصان حانقاً دونما سبب . وقد تبدد غضبه قليلا حين عثر على قطعة من قشور البطيخ ، فمضى يقضمها بسكينة .

وتنبه فجأة الى أن ثمة ولداً صغيراً يقف على مقربة

منه ، ويرمقه مبتسماً . فقال الحصان لنفسه :
« أنا لا أعرفــه وسأرفسه اذا دنــا مني . سأرفسه رفسة قوية تكسر رأسه » .
وانتهى الحصان بعد حــين من مضغ قشرة البطيخ ، فانتابه الاسف لانتهائهــا ، وراح يتطلــع بغيظ الى الولد وهو يقول لنفسه : « سأرفسه » .
وكان أبو مصطفى في تلك اللحظات ما زال منهمكاً في نقل أكياس الحطب ووضعها على سطح العربة .
وأحس الحصان بالتعب ، فقــال لنفسه متذمــراً :
« العدالة مفقودة » .
وكان الحصان قد ولد في المدينة ، وقضى حياته كلها في طرقاتها المفروشة بالاسفلت ، ولم يغادرها مطلقا. وكان يعرف أن أجداده القدامى كانوا يمرحون طلقاء عبر البراري الشاسعة حيث لا أبنية فيها ولا جدران من حجر ، ولكنهم ماتوا جميعاً .
وانحنى الولد ، والتقط قشرة بطيخ كــانت بمنأى عن الحصان ثم اقترب على مهــل ، فهــمّ الحصان بالتراجع غير أنه تريث متشجعاً . ومد الولد قشرة البطيخ نحو فم الحصان . فتردد الحصان لحظة خاطفة ثم تلقفها دهشاً ، وطفق يمضغهــا بغبطة ، وسمح

للولد بأن يربت على عنقه بيد أنيسة صغيرة .
وأتم أبو مصطفى نقل أكياس الحطب الى العربة .
وعندما لاحظ وجود الولد قرب الحصان صاح به :
« ابتعد ياقرد » .
ثم لوح بالسوط ، مطلقا صيحة آمرة بالمسير، فاندفع حينئذ الحصان الى الامـــام ، يجـــر العربة الثقيلـــة بتباطـــؤ .
وسارت العربة عبر طرقات عديدة ، وبلغت بعد حين شارعا عريضا تنتصب الابنية الحجرية على جانبيه ولم تكد العربة تتوغل حتى اعترض طريقها واحد من رجـــال الشرطة ، فصرخ أبو مصطفى بالحصان بصوت ممطوط : « هش » .
قال الشرطي : « ألا تعرف أن مرور العربات ممنوع في هذا الشارع ؟ » .
فقال أبو مصطفى « أعرف » .
« ـــ ولماذا جئت اذن من هنا ؟ »
« ـــ الحصان .. أنظر .. الحصان تعبان جداً ،واذا مررت في هذا الشارع فسأوفر علـــى الحصان مشياً كثيراً » .
فغمر الحصان حنان عارم . وقال الشرطي : « ســـير

العربات ممنوع في هـذا الشارع • انـه للسيارات وللناس الذين يسيرون على أقدامهم فقط » •
قال أبو مصطفى : « أعرف » .
ولعق شفتيه بلسانـه ، وأردف قائـلا : « الحصان تعبان وسينقطع رزقي اذا هلك ، وأمـوت جوعـاً ويموت أولادي.. لي أربعة أولاد » .
« ــ ارجع . ولن أعاقبك لمخالفتك النظام والقانون»
« ــ لي أربعة أولاد يأكلون حتى الحجر » .
وأطلق أبو مصطفى ضحكة قصيرة جافة وكأنها مدية صغيرة شرسة ، ثم أضاف قائلا : « سأقول الصدق.. أنا لا أخاف على الاولاد انما أخاف على أمهم » .
فقال الشرطي متسائـلا بفضول : « ولمـاذا تخـاف عليهـا ؟ » .
وكانت الاشجار خضراء على جانبي الشارع ، وتمتد في الأعلى سماء رحبة زرقاء . وأجاب أبو مصطفى : « أخاف أن يأكل الاولاد أمهم اذا جاعوا • أسنانهم فظيعة » .
ومرت سيارة تسير بسرعة كبيرة ، فنفخ الشرطي في صفارته ،فلم تتوقف السيارة ، واستطاع الشرطي أن يلمح رقم لوحتها قبل أن تنأى عن بصره ، فسجله

الشرطي والحصان

أوقف أبو مصطفى عربته بمحاذاة الرصيف ، وربت بيد كبيرة متشققة على رأس الحصان ثم قصد الدكان القريبة ، وابتدأ يحمل على ظهره الاكياس الملأى بالحطب ، وينقلها الى العربة .

وكان الحصان حانقاً دونما سبب . وقد تبدد غضبه قليلا حين عثر على قطعة من قشور البطيخ ، فمضى يقضمها بسكينة .

وتنبه فجأة الى أن ثمة ولداً صغيراً يقف على مقربة

منه ، ويرمقه مبتسماً . فقال الحصان لنفسه :
« أنا لا أعرفه وسأرفسه اذا دنا مني . سأرفسه رفسة قوية تكسر رأسه » .

وانتهى الحصان بعد حين من مضغ قشرة البطيخ ، فانتابه الاسف لانتهائها ، وراح يتطلع بغيظ الى الولد وهو يقول لنفسه : « سأرفسه » .

وكان أبو مصطفى في تلك اللحظات ما زال منهمكاً في نقل أكياس الحطب ووضعها على سطح العربة .

وأحس الحصان بالتعب ، فقال لنفسه متذمراً : « العدالة مفقودة » .

وكان الحصان قد ولد في المدينة ، وقضى حياته كلها في طرقاتها المفروشة بالاسفلت ، ولم يغادرها مطلقا. وكان يعرف أن أجداده القدامى كانوا يمرحون طلقاء عبر البراري الشاسعة حيث لا أبنية فيها ولا جدران من حجر ، ولكنهم ماتوا جميعاً .

وانحنى الولد ، والتقط قشرة بطيخ كانت بمنأى عن الحصان ثم اقترب على مهل ، فهمّ الحصان بالتراجع غير أنه تريث متشجعاً . ومد الولد قشرة البطيخ نحو فم الحصان . فتردد الحصان لحظة خاطفة ثم تلقفها دهشاً ، وطفق يمضغها بغبطة ، وسمح

للولد بأن يربت على عنقه بيد أنيسة صغيرة .
وأتم أبو مصطفى نقل أكياس الحطب الى العربة .
وعندما لاحظ وجود الولد قرب الحصان صاح به :
« ابتعد ياقرد » .
ثم لوح بالسوط ، مطلقا صيحة آمرة بالمسير، فاندفع حينئذ الحصان الى الامام ، يجر العربة الثقيلة بتباطؤ .
وسارت العربة عبر طرقات عديدة ، وبلغت بعد حين شارعا عريضا تنتصب الابنية الحجرية على جانبيه ولم تكد العربة تتوغل حتى اعترض طريقها واحد من رجال الشرطة ، فصرخ أبو مصطفى بالحصان بصوت ممطوط : « هش » .
قال الشرطي : « ألا تعرف أن مرور العربات ممنوع في هذا الشارع ؟ » .
فقال أبو مصطفى « أعرف » .
« ـ ولماذا جئت اذن من هنا ؟ »
« ـ الحصان .. أنظر .. الحصان تعبان جداً ، واذا مررت في هذا الشارع فسأوفر على الحصان مشيا كثيراً » .
فغمر الحصان حنان عارم . وقال الشرطي : « سير

العربات ممنوع في هــذا الشارع • انــه للسيارات وللناس الذين يسيرون على أقدامهم فقط » •
قال أبو مصطفى : « أعرف » .
ولعق شفتيه بلسانــه ، وأردف قائــلا : « الحصان تعبان وسينقطع رزقي اذا هلك ، وأمــوت جوعــاً ويموت أولاد ي.. لي أربعة أولاد » .
« ــ ارجع . ولن أعاقبك لمخالفتك النظام والقانون »
« ــ لي أربعة أولاد يأكلون حتى الحجر » .
وأطلق أبو مصطفى ضحكة قصيرة جافة وكأنها مدية صغيرة شرسة ، ثم أضاف قائلا : « سأقول الصدق.. أنا لا أخاف على الاولاد انما أخاف على أمهم » .
فقال الشرطي متسائــلا بفضول : « ولمــاذا تخــاف عليهــا ؟ » .
وكانت الاشجار خضراء على جانبي الشارع ، وتمتد في الأعلى سماء رحبة زرقاء . وأجاب أبو مصطفى : « أخاف أن يأكل الاولاد أمهم اذا جاعوا • أسنانهم فظيعة » .
ومرت سيارة تسير بسرعة كبيرة ، فنفخ الشرطي في صفارته ،فلم تتوقف السيارة ، واستطاع الشرطي أن يلمح رقم لوحتها قبل أن تنأى عن بصره ، فسجله

على غلاف دفتره . والتفت الى أبي مصطفى محتقن الوجه غيظاً ، وقال له : « هيا ارجع » .

« ــ دعني أمر هذه المرة فقط » .

فقال الشرطي بصرامة : « ألم تسمع ما قلت ؟ ارجع » .

« ــ مرة واحدة فقط » .

« ــ ارجع . القانون قانون ، ولا فائدة من التوسل » .

« ــ الحصان تعبان » .

« ــ هيا ارجع » .

« ــ الله يحفظك لأمك » .

« ــ الله لا يحفظني ، أنا لم أخترع القانون . أنا أنفذ أوامر صادرة الي ، وأنت يجب أن تطيع هذه الاوامر » .

فلم يفه أبو مصطفى بكلمة انما تخيل القانون مخلوقاً ضخماً له آلاف الايدي : القانون يأمر الشرطي فيطيع الشرطي ، ويأمر الشرطي أبا مصطفى ويجب أن يطيع أبو مصطفى الاوامر .

ووقف أبو مصطفى متردداً هنيهات ، فصاح به الشرطي : « ارجع . واذا لم ترجع حالا فستندم » .

فاتجه أبو مصطفى نحو العربة ، وكان غضب الحصان

عندئذ قد بلغ الذروة ، فجمع قوته كلها ، واندفع جامحاً الى الامام ، فبوغت الشرطي بالعربة المندفعة نحوه ، وحاول أن يقفز الى الرصيف ، فلم يتمكن ، وصدمه الحصان ، فسقط على الارض منطرحاً على ظهره ، ووطأت صدره سنابك الحصان ثم مرت فوقه عجلات العربة وتخضبت بالدم الاحمر .

ودهش الحصان حين رأى صاحبه لم يبتهج انما امتلكه الذعر والوجوم ثم انطلق يركض هارباً .

وبعد لحظة توافد الناس مهرولين ، وتحلقوا حول العربة ، يتألق في عيونهم الخوف الممتزج بالشهوة الخفية ، كأن الشرطي المسحوق ليس الا جسد امرأة جميلة .

ولم يتفرق الناس الا عندما حضر رجال الشرطة ، وبادروا الى اعتقال القاتل .

وكان القاضي عادلا ، فسيق الحصان في فجر أحد الايام الى ساحة رئيسية خيل الى الحصان أنها ما تبقى من البراري .

ووقف الحصان مبتهجاً لانه قبل وصوله الى الساحة قد اجتاز شوارع عريضة كان يمنع من السير فيها من قبل ، ولكن بهجته لم تدم طويلا اذ تدلى بعد حين مشنوقا .

العرس الشرقي

عاد صلاح الى البيت ، وقذف كتبه ودفاتره الى الارض بحركة حانقة . فسألته أمه : « ما بك ؟ » .

فأجاب على الفور : « سئمت المدرسة » .

فقالت الام متسائلة بحنو : «ولماذا سئمت المدرسة؟» .

فصمت صلاح لحظة ثم قال : « أريد أن أتزوج » .

فأوشكت الام أن تطلق زغاريد عالية مديدة لولا نظرة صارمة بدت في عيني الأب ، فارتبكت ، وقالت مخاطبة الاب بوجل : « هل لك اعتراض ؟ » .

فلم يأبه الاب لسؤالها انما التفت نحو صلاح وقال له بصوت قاس : « أنت ولد عاق ولا تستحق أن أوافق على زواجك » .

فقال صلاح بضراعة : « سأكون منذ هذه اللحظة ابناً باراً مطيعاً » .

« ــ ستصلي » .

« ــ سأواظب على الصلاة » .

« ــ ستصلي خمس مرات في اليوم » .

« ــ سأصلي خمس مرات » .

« ــ ستصوم شهر رمضان » .

« ــ سأصوم شهر رمضان كله » .

« ــ لن تسهر خارج البيت » .

« ــ لن أسهر وسأنام كل ليلة باكرا » .

« ــ لن تسكر » .

« ــ لن أسكر ، وسأذهب الى مكة سيراً على الاقدام» .

ففرح وجه الاب ، وقال : « تعال قبل يدي » .

فدنا صلاح من أبيه ، وأحنى رأسه ، وقبل يده بخشوع ، فقال الاب : « هيا قبلها ثلاث مرات » .

فأطاع صلاح ، وقبل يد والده ثلاث مرات . وبعدئذ ضحك الاب بابتهاج ، وقال : « والآن قل لي من تريد

أن تتزوج ؟ » .

« ــ سأتزوج من الفتــاة التي تنال اعجــاب أبــي وأمــي » .

فتزايدت غبطة الأب ، وقال : « حسنا .. هكذا يتكلم الابناء الطيبون » .

وقالت الام مخاطبة صلاح : « كانت أمنيتي الوحيدة أن أرى أولادك قبل موتي وأولاد أولادك » .

وقال الاب للام : « هيا ساعديني . أي فتاة سنختار لــه ؟ » .

ففكرت الام هنيهات ثم قالت : « هيفاء بنت الجيران فتاة جميلة » .

قال الاب بمرح : « أعرفها .. أعرفها . لقد وفقت في الانتقاء » .

وقالت الام موجهة كلامها الى صلاح : « أتعرفها ؟ » .

فأجاب صلاح متسائلا : « كيف سأعرفها ؟ » .

ونهضت الام واقفة ، فقال الاب : « الى أين ؟ » .

« ــ سأحضر هيفاء » .

« ــ كيف ؟ » .

« ــ سأكذب علــى هيفــاء وأطلب منهــا أن تأتي لمساعدتي في الطبخ » .

وغادرت الام الغرفة ، وعندئذ أطلق الاب ضحكة عالية ، وقال لصلاح : « أه ياملعون .. اذن تريد الزواج ؟ لقد أحسنت اختيار الوقت فالشتاء موشك على المجيء » .

وسعل الأب ، وفرك كفيه بحماسة ، ثم أردف قائلا : « ما أجمل النوم لصق اللحم الساخن » .

فقال صلاح برصانة : «أنا لا أحب النوم مع النساء» .

قال الاب بدهشة : « اذن .. لماذا تريد الزواج ؟! » .

فابتسم صلاح بغموض ، ولم يفه بكلمة . وساد الصمت في الغرفة حتى رجعت الام وبصحبتها هيفاء.

وكانت هيفاء في السادسة عشر من عمرها ، بيضاء ، عيناها سوداوان ، وشعرها أسود ، ذات قامة ممشوقة مكتنزة الجسد ، وقد دلفت الى الغرفة باستحياء ، وجلست مرتبكة على أحد المقاعد .

وأشارت الام الى الاب خفية طالبة منه أن ينهض ويترك الغرفة ، فأطاع رغبتها وهو يبتسم بمكر . وتبعته الام بعد قليل . وقالت وهي تغادر الغرفة : « سأرجع بعد قليل » .

وتأمل صلاح هيفاء مليا ثم قال لها على حين غرة : « هل أنت بارعة في حل مسائل الحساب ؟ » .

فهزت رأسها بالايجاب ، فابتسم صلاح ، وقال :
« هل أخبرتك أمي بما عزمت عليه ؟ » .
« ـ لم تخبرني بشيء » .
« ـ ألم تقل لك اني سأتزوج ؟ » .
« ـ لا » .
« ـ ألم تنبئك بمن سأتزوج ؟ » .
« ـ لا » .
« ـ أريد أن أتزوج منك . . فهل لديك اعتراض؟» .
فتصنعت هيفاء الخجل ، وقالت بصوت خافت مرتعش : « أنا لا رأي لي . الرأي لأهلي » .
فقال صلاح : « أنت بنت عاقلة . وستساعديني في حل مسائل الحساب » .
« ـ طبعاً سأساعدك » .
فاغتبط صلاح ، وصاح بصوت ممطوط عال :
« أمي أمي » .
فدخلت الام الى الغرفة مسرعة ، وقالت : « ماذا تريد ؟ » .
« ـ أعجبتني هيفاء وأريد أن أتزوج منها الليلة » .
« ـ انتظر أياماً »
« ـ لن أنتظر » .

« ـ انتظر اذن حتى المساء ريثما يعود والد هيفاء من عمله » .
وراقب صلاح بحسرة هيفاء وهـي تنهض وتغـادر الغرفة عائدة الى بيتها .
وبدأت الأم تتزين استعداداً لزيارة أهل هيفاء بينما وقف الاب أمام المرآة ، وطفق يتحدث اليهـا متخيلا أنها والد هيفاء. وضاق صلاح ذرعاً بالجلوس ، فأخذ يتجول في باحة البيت . ونظر الى الشمس بسخط :
« هيا ارحلي بسرعة » .
« لمـاذا ؟ »
« سأتزوج حين يقبل الليل » .
« لن أرحل بسرعة » .
« سأرجمك بالحجارة » .
« هيا افعل فلن تصل الي حجارتك » .
وبعد حين ابتدأت الشمس تلملم أنوارها الصفراء وهي تتعمد التباطؤ بينما كان صلاح يمشي في باحة البيت بخطى قصيرة سريعة .
وما ان غابت الشمس حتى كان والدا صلاح يتجهان نحو بيت أهل هيفـاء . وفتح لهمـا الباب قبل أن يطرقاه ، ورحب بهما . وأدخلت أم صلاح الى غرفـة

النساء . واقتيد والد صلاح الى غرفة الضيوف ، فبقي وحده هناك لحظات ثم أقبل والد هيفاء مرحباً محيياً . وتحدث الاثنان عن الطقس وعن الفساد المتفشي بين الشبان . وبغتة قال والد صلاح : «أريد أن أحدثك عن أمر مهم » .

« ـ تفضل » .

« ـ أريد أن أزوج ولدي صلاح من بنتك هيفاء » .

ولاذ بالصمت هنيهات ثم أضاف متسائلا : « ما رأيك ؟ » .

فابتسم والد هيفاء ، وقال : « وهل هذا أمر يحتاج الى سؤال ؟ أنا بالطبع موافق فأنتم من خير الناس » .

« ـ كم تريد ثمنها ؟ » .

« ـ ابنتي جميلة ، متعلمة ، وسأقبل أن أبيعها اكراماً لك بخمسة وثلاثين ليرة لكل كيلو » .

« ـ هذا ثمن باهظ » .

« ـ لو لم نكن جيران لطلبت أكثر » .

« ـ وأنا أيضا سأطلب منك أن تخفض الثمن لاننا جيران » .

« ـ أقسم بالله بأني لم أطلب أي زيادة فابنتي جميلة وتجيد القراءة والكتابة والطهي » .

« ــ تستحق ابنتك أغلى ثمن ، ولكنك تعلم أن الحصول على الليرة الواحدة في هذه الايام أمر شاق وصعب » .

« ــ أعتقد أن السعر الذي عرضته معتدل ومناسب» .

« ــ نحن فقراء ويجب أن تراعي ظروفنا » .

« ــ الغنى في الأخلاق الحميدة » .

« ــ صحيح أن الغنى في الاخلاق الحميدة ولكن . . »

فتنهد والد هيفاء ، وقال : « ماذا تريد مني أن أفعل؟ انها ابنتي الوحيدة ومن واجبي الاهتمام بمستقبلها حسناً . سآخذ ثلاثين ليرة ثمنا لكل كيلو » .

فرحب والد صلاح بالسعر الجديد . وأرسلت هيفاء على عجل الى السوق ، وهناك وضعت على ميزان كبير ، فبلغ وزنها خمسين كيلو . ودفع والد صلاح الثمن بينما كانت الزغاريد تتعالى ، ثم اقتيدت هيفاء الى الغرفة المخصصة لصلاح ، وأقفل الباب باحكام غير أن الجارات تزاحمن حوله بغية النظر من ثقب القفل للاطلاع على ما يجري داخل الغرفة .

وقال صلاح لهيفاء : « أما زلت موافقة على مساعدتي في حل مسائل الحساب ؟ » .

« ــ سأساعدك » .

« ــ لا تخبري أبي وأمي » .
« ــ لن أخبر أحداً » .
فضحك صلاح مبتهجاً بينما اتجهت هيفاء نحو باب الغرفة ، ودست في ثقب القفل قطعة من القطن ثم ابتدأت بخلع ثيابها بحركات امرأة ناضجة ، شديدة الثقة بنفسها ثم استلقت على السرير ، وقالت لصلاح بصوت آمر غريب النبرة : « تعال . هيا اقترب مني أريد أن أخبرك بسر » .
« ــ ما هو ؟ تكلمي » .
« ــ اقترب . لا تخف . لا أريد أن أتكلم بصوت عال لئلا يسمعنا أحد » .
ووجد صلاح نفسه منساقاً الى الدنو منها . وأجبره صدرها العاري على أن يلصق وجهه به ، ثم تلقف فمه حلمة نهدها الفتي بينما كانت تجتاحه رغبة ضارية في التهامها .
ولم يأكل صلاح النهد انما أجهش بالبكاء حائراً بعد لحظات حين لم يمنحه النهد حليباً دافئا .

الاطفـال

في الليل

كان الطفل مستسلماً للسبات حين صعدت الجنية من مكان ما مظلم تحت الارض ، وهمست قائلة بصوت رقيق : « سآخذك الى البحر » .

فقال الطفل بحيرة : « أنا لا أعرف ما البحر » .

قالت الجنية : « البحر طفل يحب الماء ، ولـه عينان زرقاوان » .

وعندئذ سمـع الطفل هـدير مـاء غاضب ، فهمس

بضراعة : « لا أحب الماء » .
« ــ ماذا تحب اذن ؟ » .
« ــ أحب البستان » .
فضحكت الجنية بهزء ، وقالت متسائلة : لماذا تحب البستان ؟ » .
« ــ البستان أخضر » .
فقالت الجنية باصرار : « سآخذك الى البحر » .
وأقبل البحر ، ولم يكن طفلا انما كان رجلا طويل القامة ، عريض الكتفين ، نبتت في صدره أعشاب خضراء . وارتعش الطفل مذعوراً ، ولم يجسر على البكاء . واقترب البحر من الجنية . وحين احتضنها بساعدين ذهبيين ، اضمحلا فجأة كأنهما ملح رش فوق الماء . وأفاق الطفل من نومه يرتعد هلعاً ، وبكى بصوت مرتفع . ولم تسمع أمه النائمة أصواتنحيبه فظل حيناً من الوقت يبكي وحيداً وهو مستلق على ظهره فوق سريره الصغير ثم عاد شيئاً فشيئا يستسلم للنوم ، فضحك البستان ، واخضرت الاشجار ،وحطت على الاغصان عصافير صغيرة،وراحت تغرد ، وأنشد النهر أنشودة مبتلة بالماء ، ففرح الطفل غير أنفرحه لم يدم طويلا فقد رجعت الجنية لتهمس باصرار :

« سآخذك الى البحر » .

وكانت الجنية آنئذ امرأة دميمة ، تتقد الكراهية في عينيها الكبيرتين ، فأطلق الطفل صرخة رعب عالية، أيقظت أمه من نومها ، وجعلتها تهرع اليه مرتاعة ، ثم تمددت لصقه ، وضمته الى صدرها بحنان، وراحت تهدئه حتى اطمأن وكف عن النحيب ، وبدأت تهدهده بصوت خافت ، ووعدته أنه اذا نام فستجلب له طيرين من الحمام الابيض .

وكان البستان في تلك اللحظة امرأة مضطجعة على ظهرها ، تضحك مبتهجة. وطارت عبر الفضاء الازرق حمامتان ثم لحقت بهما حمامة ثالثة صغيرة ، وكانت لا تحب الماء .

مخبأ القمر

قال الطفل لأمه : « البارحة في الليل نزل القمر من أعلى وشرب كوباً من الماء » .

فابتسمت الام وقالت : « عندما كنت صغيرة السن مثلك رأيت مرة القمر يقطف برتقالة » .

« ــ هل يحب القمر البرتقال ؟ » .

فلم تجب الأم ، فأردف الطفل متسائلا : « الى أين يذهب القمر في النهار ؟ » .

« ــ يختبىء » .
« ــ أيــن ؟ » .
« ــ لا أحد يعرف مخبأه » .
« ــ لماذا يختبىء ؟ » .
« ــ نحن ننام في الليل أما القمر فينام في النهار » .
فلاذ الطفل بالصمت ولم يفه بكلمة غير أنه صمم منذ تلك اللحظة على البحث عن مخبأ القمر حين يصبح كبير السن .

اليد الصغيرة

كان للطفل قطة بيضاء ، وكان يحلو لــه أن يتحدث معها . وفي يوم من الايام ماءت القطة ، وقالت لــه :
« اشتر لي كوخــاً » .
« ــ أنت تحبين العَيش في الطرقات ولست بحاجــة الى كوخ » .
« ــ أنــا أحب التجوال ليلا في الطرقات ، أمــا في النهار فأحب النوم في مكان هادىء أمين » .
قال الطفل : « أنا صغير ، لا أملك ثمن كوخ » .
« ــ اذن ابن لي كوخا » .
« ــ أنا صغير ويداي صغيرتان لا تستطيعان بنــاء كــوخ » .

فغضبت القطة ، وكفت منذ تلك الهنيهة عن التحدث مع الطفل . ولقد اضطر الطفل فيما بعد الى أن ينشد صديقاً له بين الاطفال الصغار .

غيوم

ضحك الطفل طويلا دونما سبب ، فسألته أمه بفضول : « لماذا تضحك ؟ » .

قال الطفل : « هل يعرف النهر اسمي ؟ » .

فأجابت الام : « النهر لا يتكلم وهو يعرف أسماء الضفادع والاسماك » .

قال الطفل بثقة : «النهر يعرف اسمي،وهو يحبني».

« ــ لا تقترب من النهر . انه يختطف الاطفال الصغار » .

فهز الطفل رأسه بحيرة فقد سبق له أن سمع النهر يهمس باسمه بحنو . وكان صوته فائق العذوبة رقيقاً كعبير الياسمين .

وظل الطفل صامتاً هنيهات ثم قال لأمه : « سرقت غيمة » .

فقالت الام : « الكذب عيب » .

« ــ أنا لا أكذب . سرقت غيمة » .

وأشار الطفل بيده الى أعلى حيث الغيوم متجمعة عبر

الفضاء ثم قال : « سرقت واحدة من هذه الغيوم » .
« ـ كيف ؟ الغيوم عالية جداً وأنت صغير » .
« ـ قلت للغيوم : تعالي ، فانحدرت من أعلى » .
وبسط الطفل راحته ، وكان عليها قطعة من القطن الابيض ، فضحكت الام وقالت : « هل هذه غيمة ؟» .
فقال الطفل بصوت مفعم بالبهجة : « لم أستطع أن أسرق الغيمة كلها فهي كبيرة جـداً فاكتفيت بخطف جـزء منهـا » .

صديقتي الشمس

لـم يستطع الطفل أن ينجـح في محاولته أن يجابـه ضياء الشمس بعينين مفتوحتين ، فأحنى رأسه مكتئباً وقال لأمه : « الشمس تكرهني » .
فقالت الام : « الشمس تحب كل الناس » .
فقال الطفل باصرار : « الشمس لا تحبني » .
ورحل النهار بخطى متئدة مصطحباً معه شمسه ذات الوجه الشاحب . وهطلت الامطـار غزيرة في الليل ثم أقبل الصباح أبيض رطبا .
وصاح الطفل فرحاً حين عثر في باحـة البيت علـى عصفور صغير يرتعش من البرد وقد بلله المطـر ، وسارع الى اطعام العصفور من فتات الخبز غـير أن

العصفور ظل ضعيفا يرتجف من الصقيع والخوف . وبدا للطفل أن العصفور قد يموت في أي لحظة ، فامتلكه الاضطراب والجزع ، ولكن ما ان رحلت السحب الرمادية عن السماء ، وعادت الشمس الى الظهور حتى بدأ العصفور ينطنط بمرح ، ولم يمض سوى وقت قليل حتى طار العصفور مرفرفاً بجناحيه، فتطلع الطفل الى الشمس بعينين امتزج فيهما الخوف والشكر والوداعة ثم ابتسم لوجهها الذهبي ابتسامة من اختار ما سيحبه حتى النهاية .

الغزال السجين

سار الطفل في طريق حافلة بالضجيج، وكانت أصابعه صغيرة خائفة ، تتشبث بلهفة بيد أمه . وبغتة توقف عن السير وصاح : « ما هذا ؟ » .

وأشار بيده نحو باب دكان لبيع الدجاج والطيور . وكانت تقف هناك غزالة يلتف حول عنقها طوق جلدي يمنعها من الافلات والهرب .

قالت الام : « هذه اسمها غزالة » .

« ــ من أين أتت ؟ » .

« ــ من الصحراء » .

« ــ ما هي الصحراء ؟ » .

« ــ الصحراء مكان واسع جداً ، أرضه مغطاة بالرمل » .

« ــ ما هو الرمل ؟ » .

« ــ الرمل حبات صغيرة جدا ، ناعمة ، صفراء اللون » .

« ــ لماذا أتت الغزالة الى هنا ؟ » .

« ــ جلبها الصيادون لبيعها » .

« ــ وماذا يفعل بها من يشتريها ؟ » .

« ــ يذبحها فلحمها لذيذ الطعم » .

فتأمل الطفل الغزالة ملياً ، وكانت تقف مذعورة رشيقة ذهبية اللون ، عيناها وديعتان تطل منهما رغبة في البكاء .

وارتجف الطفل ، وأحس أنه كان في يوم ما غزالا يعدو عبر صحراء فسيحة ، فأجهش بالبكاء .

وكانت الصحراء آنئذ في مخيلة الطفل أرضاً فسيحة جداً ، تغطيها رمال صفراء ، ولا يعيش فيها سوى الغزلان والصيادين .

آخـــر الرايات

راقبت حذائي بحنو بينما كان ماسح الاحذية الكهل منهمكاً في تنظيفه وتلميعه ، فقد اشتريته قبل شهرين بخمسة وثلاثين ليرة ، ولن أستطيع الآن بيعه بالثمن نفسه .

هاهم بشر الارض يتركون أعمالهم جميعاً ويتحلقون حولي صامتين ، وأنا رجل أضع عمامة بيضاء علـــى رأسي ، ولحيتي سوداء طويلـــة ، وصوتي الوقـــور الذي يخالطـــه التهـــدج والتأثـــر ، يصعد عاليـــاً :

« ياأبنائي .. الاحذية كالنساء » . وطغت علي رغبة في سماع صوتي ، فقلت لماسح الاحذية ان العام المنصرم كان عام خير • فقال لي ان يوم القيامة دنا • فقلت له ان ما يقوله غير صحيح فالعام المنصرم كان عام خير فقطتنا أنجبت خمسة أولاد . فقال لي ان القطط لطيفة ، وأخبرني أنه ربى مرة قطة أدركت مدى فقره فامتنعت عن الاكل من طعامه وأصبحت تسرق طعامها من عند الجيران . فضحكت وقلت له اني أعرف قطة أحبت قطاً وظلت مخلصة له ثلاث سنوات • فقال لي ان الله كريم • فقلت له ان ما رويته لأمر مدهش • فقال لي انه يجب علي ألا أدهش فالحيوانات مخلوقات لطيفة خلقها الله ، وعيبها الوحيد هو أنها تمشي على أربع .

فلذت آنذاك بالصمت حتى انتهى من مسح حذائي ، فنقدته أجرته ثم انطلقت أجوب الشوارع وأنا أتخيل الناس المارين فيما حولي يمشون على أربع . وقد ضحكت بغبطة غير أني قطبت جبيني عندما لاحظت أن بائع حلوى صغير السن يرمقني بريبة ، فدنوت منه واشتريت ثلاث قطع من الحلوى غير أن نظرة الريب لم تختف من عينيه فحنقت عليه ،

وتابعت سيري بخطى سريعة ، وسلكت طريقا فرعية، وهناك طوحت بقطع الحلوى الى الارض ، فأسرع أحد رجال الشرطة وقبض علي ، واقتادني الى مخفر الشرطة ، وهناك فحصوا قطع الحلوى فاكتشفوا أنها مسمومة . والتف حولي رجال عديدون ، وطلبوا مني ذكر اسم عدوي، فقلت لهم انه ليس لي أي عدو . فرمقني الرجال بنظرات استنكار وهزء ، ونصحوني بقول الصدق وعدم اللجوء الى اللف والدوران ، وأضافوا بأنهم يعرفون كل شيء عني لانني مراقب منذ زمن طويل . فأطلقت صيحة دهشة واستغراب غير أنهم لم يأبهوا لها ، وأحضروا رجلا أنيق الثياب ذا وجه حليق ، وقالوا لي انه عدوي الذي كنت أريد القضاء عليه عن طريق اطعامه قطع الحلوى المسمومة فصرخت قائلا ان ما يقولونه مناف للحقيقة . وعندئذ تكلم الرجل الغني فقال انني هددته بالقتل اذا لم يوافق على زواجي من ابنته . فقلت للرجال انني أحب ابنته وهي تحبني أعظم الحب . ثم صرخت مخاطباً الرجل الغني بغضب : « لقد حطمت حبنا وحتمت علينا أن نفترق . ماذا يضر لو تزوج الفقير من بنت الغني ؟ الرجل هو من تتوفر فيه المقدرة على

انجاب الاطفال وجعلك جداً » .
فتبادل الرجال نظرات ذات مغزى ، فتابعت الصراخ: « يجب أن يزول التفاوت بين الغني والفقير » .
وفي تلك اللحظة ترك بشر الارض كلهم أعمالهم وتحلقوا حولي صامتين ، فقلت لهم بصوت ترتعش فيه رغبة في البكاء : « يجب عليكم ياإخواني أن تهدموا الجدار الذي يفصل الانسان عن الانسان ».
فطلب مني المحققون أن اسكت ثم أمروا باحضار حلاق . وبعد قليل دلف الى الغرفة رجل يرتدي ثياباً بيضا ، ويحمل حقيبة سوداء .
لم يتفوه بكلمة انما وضع الحقيبة على سطح الطاولة ثم فتحها وأخرج منها منشفة بيضاء وربطها حول عنقي ثم أخرج من الحقيبة موسى وشحذها على قطعة من الجلد مدهونة بالزيت ثم دنا مني وطلب الي عدم التحرك أو التنفس ، فامتثلت لرغبته ، فذبحني بحركة خاطفة وسقط رأسي على الارض ، فتألمت ونهضت واقفاً ، فقال لي الحلاق : « نعيماً ».
فلم أستطع الرد ، وهرولت خارجا من مخفر الشرطة، واندفعت أركض في الشوارع قاصداً البيت .
وعندما بلغت البيت ، صاحت أمي: «أين رأسك ؟».

فلم أجب لأني كنت بلا لسان ، فأضافت قائلة : «اذن لن تستطيع الذهاب الى طبيب الاسنان ؟ » .

فاكتأبت للغاية لاني لن أتمكن اليوم من الذهاب الى طبيب الاسنان لمعالجة سني المنخورة غير أني بعد قليل ابتهجت اذ أدركت أني لم أعد بحاجة الى الذهاب الى دكان الحلاق .

خضـراء

وقفت المرأة في الحديقة ، يطل عليها من الاعالي قمر من حجر أصفر . وكانت قدماهـا اللتان تطآن التراب عاريتين . وتناهى الى سمعها غناء خشن ناء، فأحنت رأسها بانكسار . وكان الخوف في تلك اللحظة طيراً أبيض مذبوح العنق .

وارتجف جسد المرأة ، واغرورقت عيناها بالدموع ، وابتدأ لحمها يتصلب شيئا فشيئا ، ونمت جـذور في باطن قدميها وشقت التراب الجاف وراحت تتغلغل

فيه بينما كانت المرأة ما تزال تبكي منكسةالرأس . وبغتة ندت عن المرأة صرخة ذعـــر خافتة ، ورفعت ذراعيها الى أعلى محاولة التخلص من التراب غـــير أن ذراعيهـــا تيبستا وبقيتا مرفوعتين ، وتمايـــل الجسد يمنة ويسرة ، ونضبت دموع العينين رويداً رويـــداً ، وتحـــول اللحـــم الى خشب اكتسى بقشرة متشققة . وأقبل الشتاء فيما بعد ، وغسلت أمطاره المرأة المثبتة في التراب ، ثم أتى الربيع ، فبدأت تنبت أوراق خضراء صغيرة في ذراعي المرأة وشعرها ثـــم ما لبث أن انبثق زهر كثير .

وسطعت شمس الصيف على الحديقة ، وعندئذ أقبل صاحب الحديقة ، وكان رجلا هرماً ، فألفى أشجار التفاح في حديقته مثقلة الاعصاب بالثمار عدا شجرة واحدة لم يتحول زهرهـــا الى تفاح ، فاستاء منهـــا ، وسارع الى احضار فأسه ، وراح يهوي بها على جذع الشجرة ، وتوالت ضرباته حتى سقطت الشجرة على الارض ميتة .

الهزيمة

رجع خليل السامر الى غرفته ، محني الظهر ، متعب لقدمين ، واستلقى على فراشه ، وارتجف مقرورا وحيداً ، ثم استسلم للنوم بينما كانت للريح خارج الغرفة أصوات ذئبة هرمة جائعة .

وتحولت الريح بعد حين الى يد مرتعشة الاصابع ، وفتحت باب الغرفة ، لتدلف الى الداخل ملكة سوداء الشعر ، لقامتها كبرياء الرمح الغاضب ، وأمرت أن يعذب خليل السامر حتى الموت ، فتعالت على الفور

أصوات مبحوحة تردد :
« سنعذبه » .
« سنضع ملحا في عينيه » .
« سنشوي لحمه » .
« سنسحق عظامه » .
وارتعد خليل السامر مذعورا ، ثم تحول ذعره الى دهشة عارمة حين أبصر الملكة السوداء الشعر تجثو على ركبتيها فجأة ، وتصيح متوسلة : « اهرب اهرب » .
فقال خليل السامر متسائلا : « الى أين أهرب ؟ » .
فبدا على وجه الملكة ألم طاغ ، وتهاوت على الأرض ميتة ثم تحولت الى فراشة ، واختفت في فراغ أسود .
وظل خليل السامر ينتحب دونما دموع حتى أفاق من نومه ذات صباح ، وخيل اليه وهو يتمطى متثائبا أنه نام مائة سنة وأن معدته حقيبة فارغة عتيقة ، فبادر الى مغادرة البيت . وكان للبيت باب من خشب، صفقه خلفه بشدة ، وسار في شارع له رصيفان ، ترين عليه السكينة . ولم يقابل في أثناء سيره لا رجلا ولا طفلا ، ولا امرأة على شرفة . وكانت الارصفة مغطاة بطبقة من أوراق الاشجار الصفراء ،

والسيارات تقف بمحاذاة الارصفة مهملة يجللها الغبار . وواظب خليل السامر على السير بخطى مرتبكة متباطئة حتى بلغ أحد المطاعم . وحين همّ بالدخول اليه، بوغت برؤية جرذ ضخم الحجم يمتطي دراجة ، فابتسم وتطلع بدهشة الى السماء الزرقاء الصافية ، ثم دلف الى داخل المطعم ، وهناك شاهد العديد من الجرذان ، وكانت كلها ضخمة الحجم ، تجلس خلف مناضد خشبية ، تتناول طعامها بحركات رصينة .

واختار خليل السامر منضدة منزوية ، وجلس خلفها يغمره الخجل والارتباك ، وثبت نظراته على الغطاء الوسخ ، وأخذ يحصي البقع المتناثرة عليه ، فألفاها ست بقع .

وبعد قليل جاء الجرسون ، وكان جرذا ضخما يرتدي بزة سوداء وقميصا ناصع البياض ذا ياقة منشاة . وقد تأمل خليل السامر بنظرات مفعمة بالدهشة ، ثم حنى رأسه ، وأطلق من فمه صوتا خشنا ممطوطا أبح شبيها بنباح كلب موشك على الموت .

فقال خليل السامر : « أريد كوب حليب ورغيفين وقطعة جبن وقليلا من الزبدة » .

فحنى الجرسون رأسه ثانية ، ومشى مبتعـدا عن المنضدة . وأغمض خليل السامر عينيه ، وحاول أن يتخيل طفلا أشقر الشعر ، يضحك بعذوبـة ، فلم ينجح . وحاول أن يتخيل شجرة خضراء وعصفورا صغيرا وامرأة سوداء الشعر ، ففشل ثانية ، وعض بأسنانه على شفته السفلى . وعاد في تلك اللحظة الجرسون ، ووضع على سطح المنضدة صحنا فيه قطعة لحم نيئة . فاستاء خليل السامر ، وقال بصوت حانق مرتفع : « ما هذا ؟ طلبت كوب حليب » .

فقاطعه الجرسون بصرخة نزقة ، وتابع خليل السامر قائلا : « طلبت كوب حليب ورغيفين وقطعة جبن وقليلا من الزبدة لا لحما نيئا » .

فنبح الجرسون ، ونبحت الجرذان الضخمة الحجم الجالسة وراء المناضد المجاورة . وكان النباح قهقهة طويلة هازئة . فغضب خليل السامر أشد الغضب ، وحاول أن يتكلم محتجا ، فضاعت الكلمات واختفت ، ولم ينبعث من فمه سوى نباح متقطع أجش ، فأغمض عينيه لحظة ، وحينئذ أبصر ملكة سـوداء الشعر تسقط ميتة ، ولم تتحول بعد لحظة الى فراشة انما ظلت ملقاة على الارض جثة صفراء .

وفتح خليل السامر عينيه بتثاقل ليبصر أمامه قطعة اللحم النيئـــة ، وقد بدت له بغتة شهية مغريـــة ، فامتدت اليها يداه ، وأطبقت عليها الاصابع بحرص، ورفعتها الى فم مفتوح ، وابتدأت الاسنان المنخورة تحاول مضغها ، وفي تلك اللحظة دخل الى المطعم جرذ أنيق الثياب ، وكان يجر خلفه طفلا أشقر الشعر ، يمشي على يديـــه ورجليه ، وتطوق عنقه سلسلة حديدية .

الكــذب

أنهى المعلم درسه قائلا لتلاميذه: « والآن وقد أصبحتم تعلمون أن أعظم ما في الانســان يكمن في رأسه ، فاياكم و نسيان هذه الحقيقة الرائعة » .

فتبادل التلاميذ النظرات الدهشة ، وراقبوا المعلم بفضول بينما كان يغادر قاعة الدرس مشدود القامة، مرفوع الرأس . وظلوا لائذين بالصمت هنيهات ثم ما لبثوا أن نهضوا عن مقاعدهم وتراكضوا منطلقين نحو باحة المدرسة . وهناك لم يلعبوا كعادتهم انما

تجمعوا وراحوا يتجادلون حول ما قاله المعلم .
واستمرت أصواتهم تتعالى متحمسة أشد الحماسة حتى قرع الجرس معلناً بدء درس جديد . وعندئذ عادوا الى قاعة الدرس ، وجلسوا على المقاعد منتظرين قدوم المعلم بلهفة وتحفز غير أن المعلم لم يحضر انما أقبل مدير المدرسة صارم الوجه ، وقور الخطى ، وأخبرهم أن معلمهم أصابه صداع مباغت ، وطلب اليهم بصوت خشن أن يقضوا وقت الدرس في مطالعة عشر صفحات من كتاب التاريخ ، ونصحهم بعدم التكاسل في نشدان العلم .
ولم يكد المدير يغادر قاعة الدرس حتى عاد التلاميذ الى الجدل ثانية :
« المعلم يكذب » .
« المعلم لم يكذب » .
وصاح واحد من التلاميذ بلهجة واثقة : « الرأس موجود فقط من أجل حمل العينين والانف والحاجبين والشعر والاذنين » .
وطال الجدال واشتد ثم انتهى أخيرا بالاتفاق على أن التجربة وحدها القادرة على اعطاء البرهان على كذب المعلم أو صدقه .

واختار التلاميذ واحداً منهم ، كان أصغرهم سناً ، ذا عينين زرقاوين وشعراً أشقر . وقد سارع الى الاستلقاء على الارض ضاحكا فخورا . وبادر التلاميذ الى فصل رأسه عن جسده بمدية مرهفة الحد ثم حملوا الرأس ، وتطلعوا الى جوفه من ثقب العنق المقطوع ، فلم يبصروا سوى عتمة . عندئذ سارعوا الى احضار حجر من باحة المدرسة ، وكان الحجر صلداً وصلباً ، ووضعوا الرأس على أرضية قاعة الدرس ، وانهالوا عليه ضرباً بالحجر حتى تكسر . وعندما أبصروا ما يحتوي ضحكوا بهزء ، ورمقوا بقرف النخاع الشبيه بنخاع الخروف الذي يباع نيئاً في دكاكين القصابين ، وهزوا رؤوسهم بأسف ، وقالوا بثقة : « كذب المعلم » .

بعدئذ أحضروا صمغاً ، وألصقوا قطع الرأس بعضها ببعض ثم ألصقوا الرأس بالجسد الملقى على الارض ، وتبادلوا نظرات تنم عن انتصار أكيد ، ورددوا ثانية : « كذب المعلم » .

ولكن أحدهم الصغير ذا العينين الزرقاوين والشعر الاشقر ، فوثب على الفور واقفا ، وصاح متسائلا بفضول : « هل كذب المعلم ؟ » .

في يوم مرح

قصدنا السوق أنا وأختي ، واخترنا محلا لبيع الاطفال ، ودلفنا الى داخله بخطى مضطربة خجلة ، وأخذنا نتفرج على أطفال من مختلف الاعمار ، مستلقين على ظهورهم في صناديق خشبية صغيرة .

وفجأة هتفت أختي بفرح : « انظر » .

وأشارت بسبابتها الى طفل لا يتجاوز عمره السنتين ، أبيض الوجه ، ذي شعر ذهبي ، وأضافت قائلة : « سنشتريه » .

ولم تنتظر حتى تسمع جوابي انما اتجهت تواً الى البائع ، وسألته بصوت مرتفع عن ثمن الطفل ، فحرك شفتيه دون أن أسمع صوتاً غير أن أختي صاحت : « لا لا . هذا ثمن غال جداً » .

فتبسم البائع ، وأقسم بحرارة أن الثمن معتدل جداً ، فبادرت أختي تقسم محمرة الوجه أن الثمن ليس معتدلا على الاطلاق . وانهمك الاثنان في مساومة طويلة انتهت أخيراً بالاتفاق ، فدفعت الثمن بينما كانت أختي تهرع نحو الطفل ، فتحمله وتضمه الى صدرها وتغادر المحل بخطى سريعة فتبعتها حانقاً . وقالت لي بينما كنا نسير في الشارع : « انظر انظر .. ما أجمله ! » .

فتطلعت الى الطفل ، ففوجئت به يحدق اليّ بعينين صارمتين حاقدتين . وعندما بلغنا البيت وضعت أختي الطفل على وجه السرير ، وقالت لي : « سأذهب لأحضر له ما يأكل » .

وما ان غادرت الغرفة حتى أدار الطفل رأسه نحوي ، وقال لي بصوت وديع هادىء : « سأقتلك عندما أكبر » .

فوددت لو أنهض وأهرب غير أني لم أستطع التحرك

من مكاني .
وعادت أختي الى الغرفة باديـــة البهجة ، فانتهزت الفرصة ، وسارعت الى مغادرة البيت ، ومشيت في الشوارع منكس الرأس حتى أقبل الليل ، وعندئذ قصدت خمارة أحبها ، وهناك احتسيت كؤوساً عديدة من العرق ، وتحدثت مع سكارى لم يسبق لي معرفتهم من قبل ، ولقد روى لي أحدهم أنه غادر السجن منذ أيام ، فسألته عن جريمته ، فأجاب أنه ذبح أخته ورمى جثتها الى النهر .

« ــ لماذا قتلتها ؟ » .

« ــ كانت شرهة لا تشبع » .

وفي آخر الليل ، عدت الى البيت ، فألفيت الطفل نائما لصق أختي ، فحملته برفق الى المطبخ ، ووضعته على سطح منضدة خشبية محاذراً أن يستفيق من نومه . وبحثت طويلا عن السكين قبل أن أعثر عليها ، وكان حدها مثلوماً ، فوجدت مشقة وعناء في تقطيع لحم الطفل الى قطع صغيرة ، فقد كان لحما شديد الليونة . وتنهدت بارتياح عندما انتهيت ، ووضعت قطع اللحم المبتلة بالدم في كيس من الورق ، ثم غادرت البيت ،

وألقيت ما أحمل الى قطط وكلاب تراكضت خلفي وهي تموء وتنبح ، ثم سرت متجها نحو مخفر الشرطة بينما كان الوهن يدب الى ظلمة الليل .

وبدا لي مخفر الشرطة قبراً ضخماً ، فلم أرتبك أو أتردد لحظة انما دلفت باستسلام الى جوفه أمشي بخطى ثابتة بطيئـــة ، فاعترض طريقي شرطي ، وابتدرني متسائلا : « ماذا تريد ؟ » .

« ــ أبغي مقابلة رئيس المخفر » .

« ــ ولماذا تريد مقابلته ؟ » .

فأنبأته بفعلتي ، فاقتادني الى احدى الغرف ، وهناك وجدت رئيس المخفر يتناول طعامه بشهية وشراهة ، فأخبرته بما فعلت عارضا يدي الملطختين بالدم . وعندما لم يعد لدي ما أقوله ، لذت بالصمت مرتبكاً ، حينئذ ضحك رئيس المخفر ضحكة جعلتني أحس بأني أهوي من أعلى ، وقـــال لي بصوت هازىء : « اذن تكلم طفل عمره سنتان ؟! » .

فقلت بحرارة وتوسل : « أقسم بأنه تكلم ، وكان سيقتلني لو لم أقتله .. أقسم .. » .

فقاطعني قائـــلا بصرامة : « اسكت . والآن ماذا تريد ؟ » .

« ــ أبغي أن أحال الى المحاكمة » .
« ــ وماذا تتوقع أن يحدث في المحاكمة ؟ » .
« ــ سيحكم عليّ بالموت شنقاً » .
« ــ ألست خائفاً ؟ » .
« ــ لا . لست خائفاً » .

فبدا الغيظ جلياً على وجهه ، وصاح بنزق : « ماذا أسمع ؟ أنت غير خائف من الموت ؟ » .

قلت ببرود وتحد : « نعم . أنا لا أهاب الموت » .

فابتسم بمكر ، وقال متسائلا : « ورجال الشرطة ؟ ألا تخاف منهم ؟ » .

فلم أجب ، وساد في الغرفة صمت ثقيل ، أحسست به حيوانا مفترساً يوشك أن يثب على جسدي . وقال رئيس المخفر على حين غرة : « لماذا أنت طويل القامة ؟ طوال القامة دائما مثيرو شغب » .

« ــ هكذا ولدت » .

فمسح رئيس المخفر فمه بمنديل من ورق أبيض ، وضغط على زر جرس ، ففتح الباب حالا ، واندفع الى الغرفة خمسة رجال ، وتحلقوا حولي ، يحدقون اليّ باحتقار . وقال لي رئيس المخفر : « اذن أنت لا تخاف ؟! هيا ابك » .

« ــ لن أبكي » .
فانقض عليّ الرجال ، وأجبروني على خلع حذائي وجوربي . وصاح رئيس المخفر مهدداً : « سأمزق جواربك اذا لم تبادر الى البكاء » .
قلت بضراعة : « سأبكي » .
قال رئيس المخفر : « هيا بسرعة . ابك بكاء ذليلا » .
وصاح الرجال بأصوات خشنة متناسقة : « ابك .. ابك » .
تذكرت حالا أطفالا تسطع آلاف الشموس في أصواتهم .
تذكرت المرايا المحملقة بتشف الى وجهي المتجعد .
تذكرت البيوت الدافئة المقفلة الابواب في الشتاء .
تذكرت فم امرأة . تذكرت ماء البحر وجسدي الهرم .
فاندفعت أبكي بمرارة بينما كان رئيس المخفر والرجال يتبادلون نظرات الزهو والانتصار .
صاح رئيس المخفر : « كف عن البكاء » .
فمسحت دموعي بظهر يدي بينما أردف رئيس المخفر قائلا : « والآن .. هيا قلّد نهيق الحمار » .
فأطعته ونهقت بصوت خشن جاف حتى صاح رئيس المخفر : « كفى .. والآن هيا اعترف ولا تكذب » .
فرويت له كيف ذبحت الطفل . الطفل نائم مغمض

العينين وديع . ويدي التي بكت يوما حنيناً الى شعر امرأة ، تحمل السكين . استيقظ الطفــل . أدرك ما سيحدث . لم يصرخ مستغيثاً . نظر الى المصباح الكهربائي المتدلي من السقف وقال له بصوت حزين زاخر بالعتاب واللوم : « لماذا تركتني ؟ » .

فضحكت بمرح غــير أن السكــين ضربت حنجرته بغضب ، فانبثق الدم موسيقى حارة ووردة حمراء.

ابتسم رئيس المخفر بسرور وقال : « لو اعترفت منذ البداية لما نلت أي أذى » .

وعندما سطعت شمس النهار ، اقتدت الى المحكمة . ففوجئت بأختي جالسة الى منصة القاضي ، فسألتها بصوت عال : « ماذا تفعلين هنا ؟ » .

فنظرت اليّ بازدراء . ولم تفه بحرف . وبعدئذ تكلم رجــل كهل مطالباً باعدامي ثم تكلم أشخاص آخرون لا أعرفهم ثم تكلمت أختي بوقار فحكمت عليّ بالموت ، فصحت بها : « هيا عودي الى المطبخ ». فأمرني بالسكوت شرطيان ضخما الجثة ، ثم طلبا مني الانصراف على أن أحضر ساعةالفجر الى الساحة الرئيسية كي أشنق ، فغادرت قاعة المحكمة راكضاً ، وتابعت الركض في الشوارع حتى تعبت وارتميت

أرضاً ألهث بشـــدة ، فاذا بصوت بكاء يتناهى الى سمعي ، فتلفت حوالي ، فأبصرت طفلا لا يتجاوز عمره السنتين ، فنهضت واقفاً ، ودنوت منه بلهفة ، فكف عن البكاء، ورمقني بوداعة ماداً يديه الصغيرتين نحوي متمتماً : « بابا .. بابا » .

فأسرعت اليه مبهـور الانفاس ، وحملته ، وعدوت قاصـــداً البيت ، فوجـدت أختي منهمكـة في غسل الثياب . وقد شهقت فرحـة عندما شاهدت الطفل ، وبادرت تضمه الى صدرها بحنان عارم وهي تضحك جـذلى . فتنهدت بارتيـاح ، وجلست علـى كرسي خشبي ، أحـدق الى الشمس الموشكة علـى الأفول ، منتظراً مقدم الفجر .

الرعد

لا تذهب الغيوم صباحاً الى المدرسة ، وأنا أمرت الشمس بألا تشرق ، فلم تطعني ، فعزمت على الانتقام منها حين أصبح طويل القامة .

وحملقت الى معلم الحساب الذي يملك وجهاً مثلث الشكل ، فانتبه اليّ ، وصاح بي غاضباً : « انهض يا ولد » .

فنهضت واقفاً بينما تابع المعلم مخاطبتي بصرامة واشمئزاز : « كف عن مسح أنفك بكم قميصك » .

فتجمدت ، فأردف المعلم قائلا : « جاوب بسرعة .. لدينا عشرة ملايين شخص ، شنقنا سبعة ملايين فكم شخصاً بقي على قيد الحياة ؟ » .

فأجبت فوراً : « لا أعرف » .

فقال المعلـم بحنق : « أف ! الى متى ستظل تلميذاً جاهلا ؟! » .

فقلت له بفتور : « أنا أكره الحساب » .

فاحمر وجه المعلم ، وقال بلهجة حادة : « ها ... اذن أنت تكره الحساب ؟ » .

وصمت لحظة متجهم الوجه ثم استأنف الكلام متسائلا بلهجة هازئة : « وماذا تكره أيضا ؟ هيا أخبرنا » .

« ــ أكره الشتاء » .

« ــ وماذا تكره أيضاً ؟ » .

« ــ أكره الشتاء والصيف والخريف والربيع » .

« ــ وماذا تكره أيضاً ؟ » .

« ــ أكره الليل والنهار » .

« ــ وماذا تكره أيضاً ؟ » .

« ــ أكره السبت والاحد والاثنين والثلاثاء والاربعاء والخميس والجمعة » .

« ــ وماذا تكره أيضاً ؟ » .

« ـ أكره الشمس والقمر والنجوم » .
« ـ وماذا تكره أيضاً ؟ » .
« ـ أكره الاغاني والقطط والعصافير » .
« ـ وماذا تكره ... » .
« ـ أكره الرجال أكره النساء أكره الاولاد » .
عندئذ صاح المعلم: « اسكت. ستظل تلميذا جاهلا ». فاخترعت تواً قنبلة ذرية ، وطوحت بها بأقصى ما أملك من قوة ، فانفجرت ، وأشرقت الشمس على أنقاض .

E.O.F

Exclusively

First published on the net by :

Zeth Griffin